ملتقى الجيلاني بن الحاج يحي
لأعلام جربة

(الدّورة الأولى)

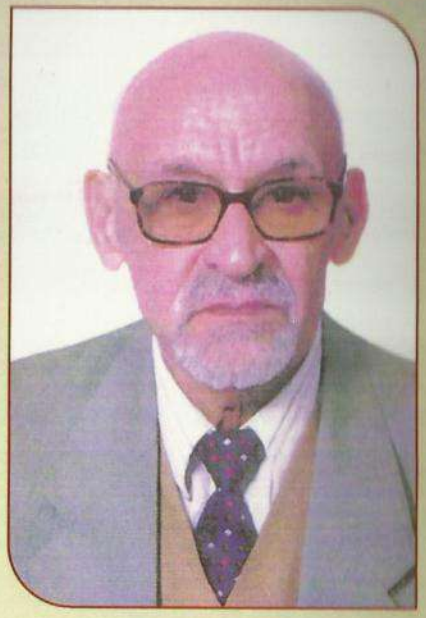

جربة 25 أفريل 2015

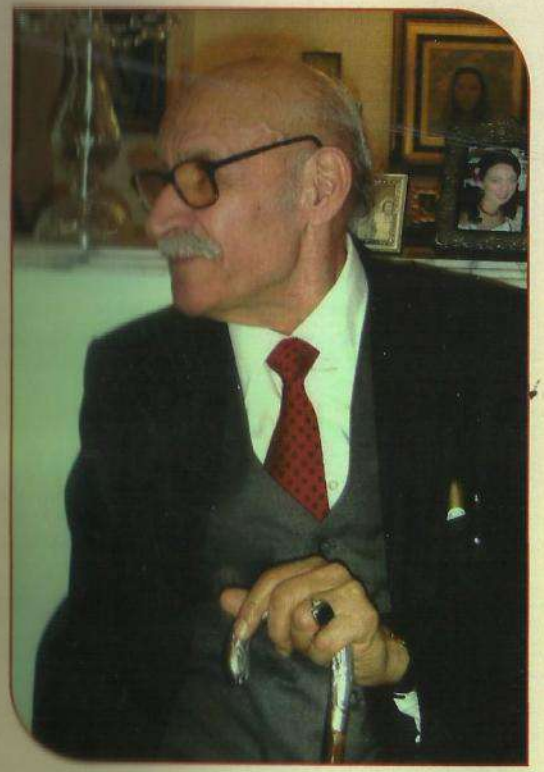

ملتقى الجيلاني بن الحاج يحي لأعلام جربة

تخليدا لذكرى المرحوم، فقيد جزيرة جربة، الأستاذ الجيلاني بن الحاج يحي، تنظّم جمعيّة صيانة جزيرة جربة ودار الثقافة فريد غازي بحومة السّوق، الدورة الأولى لـ «ملتقى الجيلاني بن الحاج يحي لأعلام جربة»، تخصّص للتعريف بمساهمته الثريّة والقيّمة في خدمة الحياة الثقافيّة والأدبيّة محليّا ووطنيّا، وذلك يوم السبت 24 أفريل 2015 بدار الثقافة فريد غازي بحومة السّوق.

البرنامج

السبت 25 أفريل 2015

. الثالثة بعد الزوال: الافتتاح.
. مداخلة الأستاذ: عبد الواحد ابراهم.
. مداخلة الأستاذ: أحمد الحمروني.
. مداخلة الأستاذ: عبد الحق الاسود.
. مداخلة الأستاذ: فخرالدّين الكاتب.
نقاش.

الأحد 26 أفريل 2015

جولة لزيارة عدد من المعالم الجربيّة المتميّزة انطلاقا من السّاعة التّاسعة صباحا.

مقدمة

نفتتح على بركة الله أولى إصدارات جمعيّة صيانة الجزيرة المنبثقة عن «ملتقى الجيلاني بن الحاج يحي لأعلام جربة»، والأمل يحدونا بأن تتواصل دورات هذه التظاهرة بانتظام وأن تتوالى الإصدارات حتّى نكون أوفياء لتقليد دأبت جمعيتنا على ممارسته منذ تكوينها لتوثيق أعمالها وعملا بخيار انتهجه فقيدنا وقدوتنا وكرّس حياته لتحقيقه، تنوّعت وتعدّدت مجالاته وأغراضه موجّها خلال السنوات الأخيرة من عمره عناية خاصة لأعلام جزيرة جربة، ونحن بذلك نستحضره بيننا باستمرار ونمشي على الدرب الذي سلكه لتخليد ذكراه ولمواصلة خيار سنّه.

نسأل الله أن يوفّق سعينا فنوفيه جزءا يسيرا من أفضاله علينا.

والشّكر موصول لمن تفضّل بالجود بالنّصوص المنشورة ولأخينا وصديقنا المنصف بن جمعة الذي. وعلى عادته مع جمعيتنا. يسّر هذا الإصدار مساهمة منه في إنجازاتها.

جربة في 25 فيفري 2015

فريد عبد الحميد القاضي
الرئيس الشرفي لجمعية الصيانة

المرحوم الجيلاني بن الحاج يحي

- وُلد بميدون - جربة في 21 جوان 1929.

- زاول تعلّمه الابتدائي بمسقط رأسه في الكتّاب والمدرسة القرآنيّة، وأتمّ تعليمه الابتدائي بالمدرسة العربيّة الفرنسيّة بنهج الكنز بتونس حيث أحرز على الشهادة الابتدائيّة. أنهى تعليمه الثانوي بجامع الزيتونة. تحصّل من المدرسة الخلدونيّة على دبلوم العلوم العمليّة سنة 1949، وعلى شهادة التحصيل في العلوم من الجامع الأعظم سنة 1950. تابع دروس معهد الدراسات العليا.

- أصدر مجلّة «وحي الشباب» سنة 1949.

- شارك في مناظرة مدرسة ترشيح المعلّمين سنة 1951 وعُيّن معلّم تطبيق بعد أن أحرز على شهادة الكفاءة البيداغوجيّة، انتدب متفقدا للتعليم الابتدائي سنة 1957.

- شغل خطّة رئيس مصلحة بديوان التربية الاجتماعيّة في الستّينات.

- التحق بوزارة الشؤون الثقافيّة وكُلّف بإدارة المكتبات العموميّة.

- أحرز منحة من منظمة «اليونسكو» للتخصّص في فنّ المكتبيّة بمعهد أمناء المكتبات بجنيف (سويسرا).

- اشتغل خبيرا في المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم لمدّة ثلاث سنوات، ثمّ عيّن مستشارا لوزير الشؤون الثقافيّة.

- أحيل على التقاعد بطلب منه للتفرّغ خاصة لإحياء التراث وتأليف المعاجم العربيّة. له ما يزيد عن سبع عشرة مؤلفا.

- مُنحت له الجائزة الكبرى للدراسات من بلديّة تونس سنة 1989، وحصل على الصنف الأول من الوسام الثقافي سنة 2001.

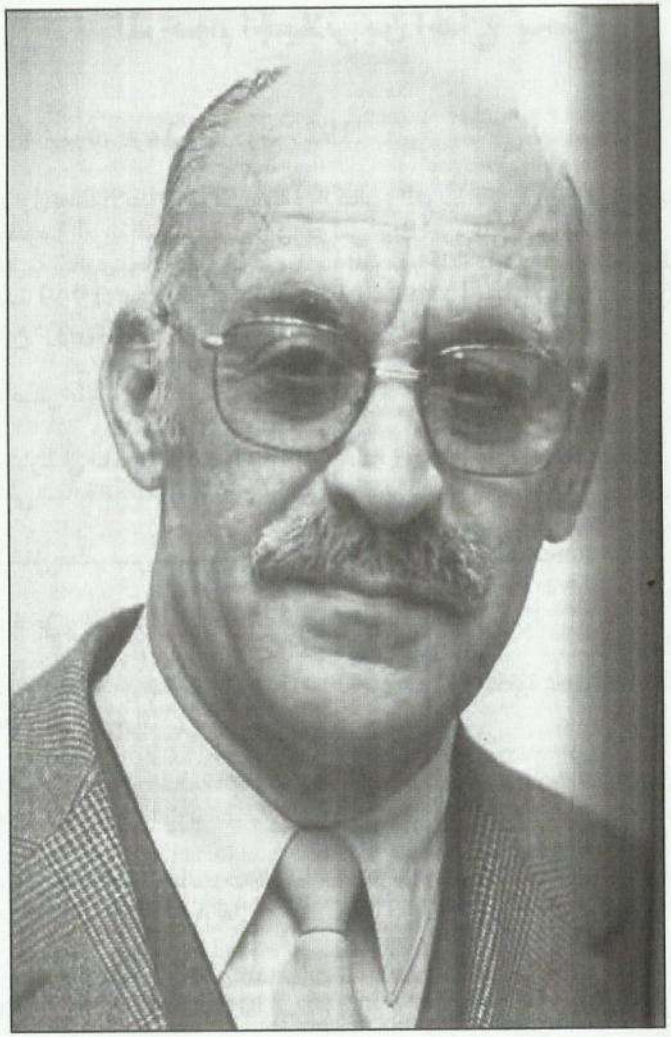

الجيلاني بن الحاج يحي:
يقظة فكر ورقّة وجدان

الأستاذ عبد الواحد ابراهم

1

يوجد نقصٌ أساسي في خلقة الإنسان، مهما سعى طيلة عمره لاستكماله فهو ليس ببالغ من ذلك إلا القليل. وهذا في الحدّ الأدنى ما تشيرإليه الآية 85 من سورة الإسراء بقولها: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا». لكن في المقابل نجد عاطفة أساسية فطريّة زرعت في الإنسان لاستكمال ذلك النّقص البنيويّ يسمّيها العلماء التّفكير الفضولي، أو الفضول الفكريّ، مهمّتها حبّ الاطّلاع، أي الاستجلاء والبحث والتّعلّم. هي عاطفة تجسّم التّعطّش الذي لا يرتوي إلى المعرفة، وتثير في النّفس الفضول، وهو عموما ما يبعث الرّغبة في الكائن البشريّ أن يصبح خبيرا في هذا المجال أو ذاك من المعارف التي تميل إليها نفسه. وبصفتها هذه صارت تلك العاطفة الفطريّة قوّة دفع رئيسيّة وراء إجراء الأبحاث العلميّة وغيرها في سائر المجالات التي تحتاجها الإنسانيّة.
وليكن لي من صديقي المرحوم الجيلاني مثال على ما ذكرت. فهو قد تلقّى تعليما زيتونيّا، وكلّنا يعلم ضيق المجال الذي كان يتحرّك فيه ذلك التّعليم، واقتصاره في قديم عهده على العلوم الشّرعيّة واللّغويّة لا يتعدّاها إلى غيرها. ولكنّ الجيلاني لم يكتف على غرار رفاق دراسته بما يتلقّاه من ذلك التّعليم، فوسّع دائرة معارفه في الخلدونية وغيرها، وغشي نوادي المدرسيّين في الصّادقية والعلويّة، فعاشر أعضاءها النّاشطين، واكتسب من بينهم أصدقاء صاروا من مشاهير المثقّفين مثل عثمان الكعّاك والطيب التريكي والطّاهر قيقة

ومحمود المسعدي ومحمد مزالي وحمّادي السّاحلي وآخرين، بل قد زاحم البعض منهم في التّرشّح لبعض الوظائف الهامّة، كما حصل حينها في مناظرة الإذاعة.

وبعد نجاحه في دخول ترشيح المعلّمين، وانضمامه إلى سلك التّعليم لم يكتف بالتّدريس فقط، بل ساهم في إنشاء مدرسة التّمثيل العربي ضمن زمرة قادها حسن الزّمرلي، وحثّ شبّانا من معارفه على الانضمام إليها مثل رشيد قاره وجميل الجودي ورمضان شطّا وآخرين، فعل ذلك منساقا كالعادة وراء فضوله المعرفي، إذ لم تكن له خلطة سابقة برجال ذلك الميدان، ولكنّ دوافع اهتمامه به كانت إصلاحيّة وتربويّة.

لم تكن له خبرة بالميدان التّجاريّ أيضا، ومع ذلك فتح مكتبة باب الجديد ليزاوج بين مجالي التّجارة و الثقافة، وشيئا فشيئا تحوّلت مكتبته . بفضل من كان يرتادها من الكتّاب والأدباء. إلى ناد يتردّد عليه كثير من المثقّفين الذين أعجبتهم المبادرة، فشجّعوا صاحبها في خطوة موالية على إنشاء مجلّة أدبيّة ليكتبوا فيها، ومن ثمّ انطلق مشروع «وحي الشّباب».

هذا الاحتكاك بدنيا الثقافة وعالم الكتاب جرّ الجيلاني إلى ترشيح نفسه لبعثة إلى سويسرا للتّكوين في ميدان التوثيق والمكتبات، انتهت به إلى نيل خبرة جديدة أهّلته للانتقال من التّعليم إلى مهمّة تفقّد المكتبات العموميّة في أرجاء البلاد، وتزويدها بما يلزم من كتب وأعوان وبرامج التّشجيع على المطالعة، وهو ميدان استغرق منه وقتا وجهدا كبيرين، وجعله يطوف البلاد طولا وعرضا، متفقّدا شبكة التّثقيف الجديدة التي ساهم في بعثها منذ كانت تابعة لوزارة التّربية إلى أن آل أمرها إلى وزارة الثقافة. كما تجوّل في البلدان العربيّة لشراء الكتب المناسبة لتزويد تلك الشبكة، الأمر الذي ربطه بصداقات كثيرة مع مشاهير النّاشرين الرّوّاد كصاحب دار المثنّى ببغداد، ودار العلم للملايين بلبنان، والخانجي بمصر وغيرهم. ولقد تأصّلت فيه عادة تقصّي ما ينشر بزيارة الكتبيّين باستمرار، والتّنقيب عن كلّ جديد لديهم أو في ما يتدفّق على معرض الكتاب كلّ عام. ولم يفتر تلهّفه على متابعة كلّ إصدار جديد حتى بعد أن ضعف بصره ونقصت قدرته على القراءة، وظلّ يشتري الكتب ويسأل عنها، حتى وإن لم يستطع قراءتها.

بعد عودته من سويسرا صار مقرّ عمله بالمكتبة الوطنيّة، فجلب انتباهه تردّد عدد من الباحثين والدّارسين على قسم المخطوطات، وكان هذا كافيا ليثير فضوله إلى اكتشاف ما يحويه هذا القسم، وزادت في حماسه صحبته النّاشئة لمحمّد المرزوقي العامل في نفس المؤسّسة والعارف بخباياها، فاشترك معه في عدد من الأعمال التّحقيقيّة مثل ما أنجزاه عن الشاعر الحصري وقصيدته «يا ليل الصّبّ»، الأمر الذي استهواه ودفعه إلى توسيع الشّراكة مع باحثين آخرين لهم نفس الاهتمام كحمّادي السّاحلي ومحمد العروسي المطوي، وقد أنجز معهما عدّة أعمال مثل «خريدة القصر» و«تاريخ معالم التّوحيد». ولقد كان رصيد المخطوطات في المكتبة الوطنية زاخرا بمؤلّفات قيّمة وأخرى أقلّ قيمة، استطاع الجيلاني بما له من فضول إلى المعرفة اكتساب مهارة التّمييز بينها، واختيار ما يحظى منها بأوليّة التّحقيق والنّشر. وحتى بعد ابتعاده عن المكتبة الوطنية بقي عضوا بلجنة شراء المخطوطات زمنا غير قصير. وأفضل ما نتج عن ذلك اختياره لتحقيق وإصدار مؤلفات محمد الحشايشي عن جامع الزيتونة وعن العادات والتقاليد التونسية.

في نفس الوقت كانت تثار في أوساط المعلّمين قضيّة المحافظة على اللّغة العربيّة والبحث عمّا يساعد التّلاميذ من القواميس المبسّطة لمفرداتها الشارحة لمعانيها، ولم يكن ينتج شيء منها بتونس بل تستجلب جميعها من لبنان، لذا فكر المربّيان علي بن هاديه وبلحسن البليّش في وضع قاموس تونسي، فانضمّ إليهما الجيلاني، ومن يومها انطلق اهتمامه بالعلوم اللغويّة وبالمعجميّة التي أضافها إلى خبراته، ممّا رشّحه بعد ذلك للانضمام إلى لجنة الرّصيد اللّغوي المغاربي.

عندما طُرح برنامج محو الأمّيّة برعاية منظّمة اليونسكو وتقرّر تنفيذه في تونس رشّحت الحكومة التونسية الجيلاني إلى بعثة تكوينيّة في سرس اللّيّان بمصر الذي تديره الألكسو، وهناك اكتسب خبرة جديدة انتفع بها ديوان محو الأمّيّة حين قيامه بحملة كبرى في الستّينيّات ونشره لمراكز تعليم الكبار على أوسع نطاق، وقد ظلّ إلى آخر أيّامه عضوا في اللّجنة الوطنية

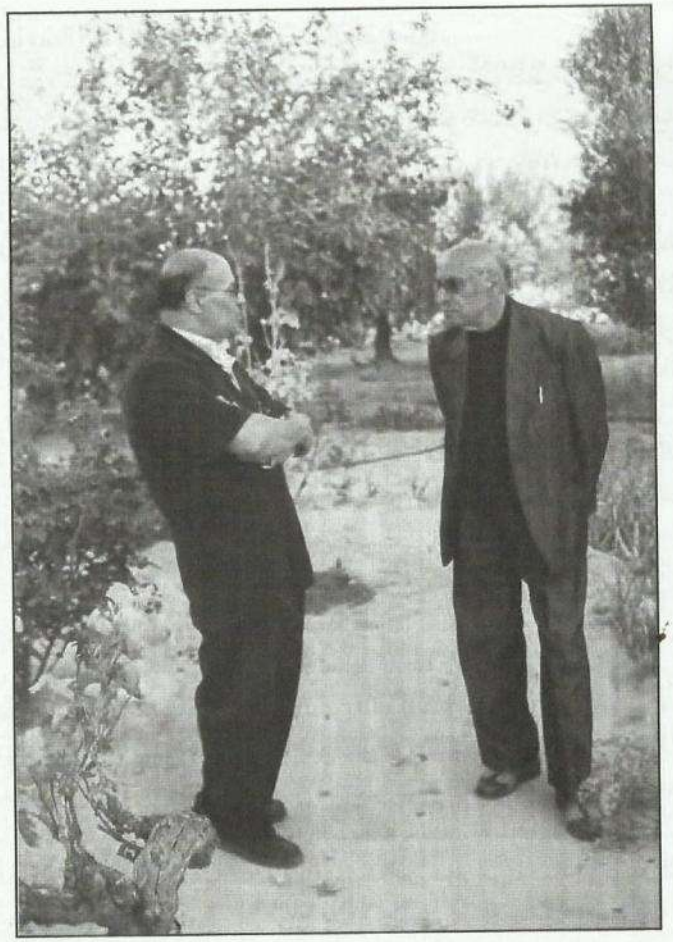

كان المرحوم الجيلاني بن الحاج يحي مهتمّا اهتماما لصيقا بنشاط جمعيّة صيانة جزيرة جربة التي انضمّ إليها ناشطا وناصحا وموجّها ومعبّا للطّاقات من أجل إنجاح برامجها وخططها، وكان يحضر بانتظام في مختلف ندواتها.
في الصّورة رفقة السيد فريد القاضي رئيس الجمعيّة على هامش أحد المنتديات

المشرفة على هذا القطاع.

ما حازه الجيلاني من خبرة في ميدان النشر وصناعة الكتاب دفعه إلى الانضمام للدّيوان القومي البيداغوجي أين أشرف على تحرير مجلة التربية والتّعليم وعدد من الكتب المدرسية، وهو ميدان استعمل فيه خبرته المزدوجة بالميدانين النّشري والتّربويّ.

كلّ هذه المهارات التي اكتسبها الجيلاني بدافع من فضوله المعرفيّ، إذا أضفنا إليها علاقات اجتماعيّة واسعة، وباع طويل في المناقشة وإيجاد الحلول المناسبة لبعض المشاكل الإدارية، جعلته مهيّئا لأن يتّخذه ثلاثة من وزراء الثقافة مستشارا، حيث ساعد بفضل معرفته بجلّ العاملين في الحقل الثقافي على اتّخاذ القرارات الصّائبة، كما ساعد من موقعه بعض المثقّفين على تذليل ما اعترض علاقاتهم بتلك الوزارة من صعوبات، وكانت تلك آخر مهمّاته الإداريّة، تفرّغ على إثرها إلى أعماله الكتابيّة وإلقاء المحاضرات، ولم ينفكّ يؤدّيهما رغم تقدّم العمر والمشاكل الصّحّيّة إلى آخر أيّام حياته.

2

بعد أن تقاعد المرحوم ونقص نشاطه الاجتماعي تسلّطت عليه موجة حنين إلى الأيّام الخوالي، جعلته يبحث عن كلّ ما يشبع شوقه إلى فترات مضت يعتبرها أجمل الأزمان وأرسخها في أصالة بلادنا وعوائده، وبدأ يحيط نفسه بصور أعزّاء كثار فقدهم، ويقتني أشياء وتحفا ومصنوعات تذكّر بالماضي الذي أحبّه، فتستحضره في مجسّمات تشبع العين والإحساس. قد يكون لكتاب محمد الحشايشي دور في إذكاء هذه العاطفة فيه. فأنا . وأدّعي أنّني أعرفه منذ زمن بعيد . لم ألاحظ عنده من قبل تردّدا متواصلا على محلاّت الأنتيكه، ولا شاهدته ينفق مالا كثيرا لشراء تلك الأعلاق القديمة التي صار يملأ بها مكتبه ويحيط بها نفسه، حتّى ضاق بها المكان وزاحم بعضها البعض. فكلّما زرته وجدت إضافات جديدة إلى ما سبق، كآلة راديو قديمة

أوصورة كبيرة للمنصف باي، أو لوحة زيتية لموكب ملكيّ بقصر باردو، أو لسوق جربة وبعض مقاهيها، إلى جانب أشياء أخرى . صغيرة أو متوسّطة الحجم . متراصّة فوق المكتب أو معلّقة على الجدران، ليس معيارها الوحيد الجمال أو دقّة الصّنع بقدر ما هو تلبية نوع من الشّوق النّفسي إلى ما ترمز إليه تلك الأشياء، مهما كانت بساطتها أو قيمتها الجمالية.

إذا كانت الخطى الأولى في الحياة العمليّة قادت صديقي الجيلاني إلى معهد ترشيح المعلّمين ليتعلّم البيداغوجيا وينغمس في ميدان التعليم، وهي مهنة اختارها ووظيفة كلّفه بها المجتمع، فإنّ صدفا عجيبة، وظروفا تهيّأت . دون ترتيب مسبق . لتقوده سواء إلى تعليم الكبار، أو إلى الاهتمام بالمكتبات والمطالعة، أو إلى تحقيق المخطوطات ونشرها، ثمّ إلى ميدان القواميس والبحوث المعجميّة.

كلّ هذا مع جانب آخر كان يساير هذه الأنشطة دون أن يطغى عليها هو الجانب الأدبي. فقد رأينا ذائقته الأدبية . التي لم تكن بارزة في أول حياته . تطوّرت بفعل مخالطته للأدباء والشّعراء المرتادين لمكتبته والمحرّرين في مجلّته، ومن ثمّ ربطته الصّداقة بعدد منهم كانوا بدورهم رابط وصل بينه وبين آخرين، وأنا أحدهم، كأحمد اللّغماني ومحيي الدّين خريّف وجعفر ماجد ومحمد العروسي المطوي ونورالدّين صمّود وآخرين، فلا يغيب عن محافلهم الأدبية وأمسياتهم الشّعريّة، وتلاقيهم في مختلف النّوادي، واشتراكه معهم في بعثات أو رحلات ثقافيّة، أو اجتماعه بهم في نادي الأحد بمكتبة عبد القادر الطرابلسي بصورة منتظمة. وأهمّ مرحلة في ما ذكرنا هي انضمامه لهيئة نادي الشّابّي بالورديّة، وحضوره في جلسات نادي القصّة التي أدارها محمد العروسي المطوي طيلة سنوات.

لنلاحظ أوّلا أنّه ليس من باب الصّدفة إيلافه العمل مع محمد المرزوقي، وهو الأديب الشاعر وكاتب القصّة والباحث في نفس الوقت، ولا من باب الصّدفة أيضا أن تلتقي رغبتهما في تناول حياة الحصري القيرواني وقصيدته الشهيرة يا ليل الصّبّ ومعارضاتها، وليس من باب الصّدفة كذلك اشتراكه

في تأليف القاموس مع علي بن هادية الذي كان شاعرا ومربّيا، وليس من باب الصّدفة أخيرا أن تتجاوز علاقته بمحمود المسعدي رتبة الموظّف مع وزيره إلى علاقة الصّديق بصديقه.

ولنلاحظ ثانيا أنّه لم تلتصق به صفة كنت أنكرها في السّادة المحقّقين والباحثين، هي انغماسهم في الأشغال البحثيّة والدّراسات الأكاديميّة، فلا تكاد تهزّ مشاعرهم القصيدة الجيّدة أو الرّواية البارعة، حتّى لأكاد أصفهم بجمود الحسّ وغلظة الوجدان. وقد قلت يوما لصديق برع في كتابة القصّة: أخشى عليك وأنت تتهيّأ للدّكتوراه أن تأخذك البحوث الأكاديميّة وتحليل النّصوص وتشريحها إلى انعدام تذوّقك للأدب وانغلاق منابع خيالك. ومضت بنا السّنون وإذا هي تؤكّد فراستي فيه وفي أصدقاء آخرين سلكوا نفس السّبيل.

لم يكن صديقي الجيلاني منتجا للشّعر ولكن محبّا للشّعراء، يحضر منتدياتهم ويقتني دواوينهم، وبالأخصّ الطّريف والمحكم منها. وربطته صداقة بأغلب شعراء جيله انطلاقا من مجلس محمد العربي الكابادي وهو آنذاك شابّ حسبه الاستماع والتّذوّق، وصولا إلى ما تلا ذلك بعد أن تبلورت ثقافته فصار يناقش الشّعراء ويمحص إنتاجهم ويقيّمه بمعيار النّقد والذّوق، ويشارك في لجان التقييم وإسناد الجوائز. أعرف أنّه لم ينقطع عن زيارة معارفه من الشعراء حتّى من بعدت ديارهم، ويسألهم عن آخر ما نظموا فيلتقط منه الطّريف ويسجّله، وقد رأيت لديه جذاذات بذلك، أورد البعض منها في كتب مختاراته. كان يذهب إلى بيت عبد الباقي خريّف . وكان مقلاّ على عكس أخيه محيي الدّين الذي كان يزوره أيضا في أريانة . فيستزيده من القصائد السّاخرة. كان يزور أحمد اللّغماني خاصّة بعد مرضه، كما زار سحنون مختار قبل موته بأيّام رغم سكناه البعيدة. وهو كلّما زار بنزرت بحث عن عمر العويني، فلمّا تقاعد الرّجل وانزوى في إحدى قرى الجريد قرب حدود الجزائر اغتنم إحدى رحلاته إلى جربة وذهب يبحث عنه هناك. وكلّما مرّ بالقيروان توقّف عند محمّد مزهود وسمع جديده، وكلّما مرّ بنفطة ليتفقّد مكتبات الجنوب طلب من صديق له هناك تنظيم سهرة مع شعراء

المدينة وظرفائها. ومرّة ذهب إلى قرية بالسّاحل يسأل عن شاعر غير معروف قرأ له قصيدة ساخرة في الصّحف، فقيل له هو في ضيعته فلم يرجع إلا بعد مقابلته وسماع شعره. وهو الذي كتب قصيدة «جحر الجيلاني» بعد أن استضافه صاحبنا في معتكفه بالبيت.

لم يكن منتجا للقصّة أو الرّواية ولكن صديقا للمبدعين في هذا الفنّ، يتابع إنتاجهم وينقده، حتّى إنّه واظب. وإن في فترات متقطّعة. على الحضور في جلسات نادي القصّة الأسبوعيّة بالورديّة، وساهم في نقاشاتها التي لم تكن تتحاشى النّقد الجريء الصّريح. وأحسبه كان يملك استعدادا للإبداع في هذا الميدان، جرّبه قديما في قصص كتبها للأطفال، وحديثا في محاولات قليلة لكتابة المقامة، ولكنّه بين المحاولتيْن اليتيمتيْن أهمل أدواته الإبداعيّة فضاعت بين جذاذات التّحقيق في المخطوطات القديمة.

(ألقيت هذه المداخلة في الدورة التجريبيّة للملتقى
الملتئمة بتاريخ 26 أفريل 2013)

الجيلاني بن الحاج يحي:
نضال ثقافي متنوّع

الأستاذ الصّادق بن مهنّي

يروي فتحي بن الحاج يحيى في كتابه «الحبس كذّاب والحي يروّح» عن والدته، خالتي حبيبة أو مادام «شيش» (كانت) عندما تتحدّث عنّا لا تسمينا سوى «لولاد» (الأولاد) كما لو كنّا جميعا أبناءها.

وأؤكد أنّنا جميعا كنا ولا نزال نعتبر عمّي الجيلاني أبا لنا جميعا، وخالتي حبيبة أمّا لنا جميعا.

وخارج السجن تصرّف عمّي الجيلاني معنا جميعا تصرّف الوالد الحنون. واكتشفنا أنّه يفعل ذلك طبيعيا، وكما يتنفّس، مع جميع مريديه الكثيرين بل الذين لا يُحصون عدّا.

لذلك لا أجدني. وأنا أحدّثكم عن عمّي الجيلاني. سوى ابن يذكر أباه ويحنّ اليه ويرتعش وجدانه، لأنّه لم يعد هنا نسأله ونستشيره ونستثيره و نروّح عن النفس معه، ويسهل عيشنا في ظلّه، بل حتّى في ظل عكازه. ولأنّني لست بالمرّة في موقع المحلل والدارس والمنقّب. رغم أنّه هو كان محلّلا ودارسا ومنقبا. ولأنّني لم أحذق فنّ إخفاء العواطف. رغم أنّه كان كثيرا ما يخفي عواطفه الجياشة وراء نظارتيْه وشاربيْه فلا يُظهر وجعَه أو استياءه أو خيبته. ولأنّني في حضرة بعض من عائلته الواسعة الذين يعرفونه مثلما عرفتُه بل أكثر ممّا أتاحت لي الظروف أن اعرفه، فإنّني سأكتفي هنا بأن أقدّم لكم بعض أوجه من الوجوه التي رسخت في ذاكرتي عن هذا الرجل المتعدّد.

نعم، لقد كان عمّي الجيلاني رجلا متعدّد الأنشطة والمعارف والانتاجات

والإبداع. وهذا ما تظهره قائمة مؤلّفاته وأعماله سواء في ما يخصّ تحقيق المخطوطات أو وضع القواميس... وهذا ما تظهره أيضا الأنشطة المهنيّة التي أوكلت اليه وعلاقاته في تونس وخارج تونس برجالات (وأنا لا أقول برجال كي أشمل بالكلمة النساء)، رجالات الفكر والفنّ بضروبه وأيضا برجالات العلم و السياسة...

غير أنّ تعدّد عمّي الجيلاني اتّخذ أيضا مظاهر أخرى سأذكر بعضها علّني أقرّبه أكثر إلى من لم يعرفه منّا.

وسيتّخذ كلامي شكل لوحات قصيرة بلون قوس قزح.

×××

اللوحة الأولى:

ولأنّنا . فتحي و أنا . أخوان يحقّ لكلّ منّا أن يستعير من الأخر، بل وحتّى أن يمارس دلاله عليه أو حتى أن يزعجه بمراوغات شتّى، فإنّ اللمحة الأولى التي سأقدّمها لكم ستكون «سلفة» آخذها من كتابه.

كتب فتحي في نهاية الصفحة 13 وبداية الصفحة 14 من «الحبس كذاب والحي يروح»:

«كنت دوما أطلعه على ما أكتب وأخشى أن يطفح كيله يوما. فهو زيتونيّ المنشإ، وأنا لائكيّ المنحى، وهو مؤمن السريرة متنوّر الإسلام، وأنا لا أدري الهوى وفي نفسي ريبة، ولكنّه ما قرأ إلا وازداد صدره سعة، كأنّي بالأدب عنده يسبق الفقه، فإذا ما استوت الزندقة بلاغة وتحوّل المروق فكاهة سقطت حجّة الكفر وانتفت صفة الجهل... ربما لاعتقاده... الجازم بأنّ الركاكة هي وحدها التي كادت أن تكون كفرا أمّا ما تبقّى فأدب...والقرآن أدب قبل أن يكون، هكذا أرى والدي، الأديب جيلاني بن الحاج يحيى، وإن قد لا يرى ما أرى... لكنّه ما فتئ دوما حاضرا.» وصف ابن خبير بأبيه... وصف فيه كثافة وفيه رقّة، وفيه دقّة وفيه شكّ المتواضع، ليس غريبا أن يصدر عن كاتب

في حقّ من قاده إلى الكتابة.

×××

اللوحة الثانية:

في معرض تقديمي لكتابه عن حوادث الجلاز قلت إنّ هذا الكتاب يمثّل واحدا من قراءاتي التي أثّرت في فكري واختياراتي وجعلتني أتّجه نحو النضال السياسي والاجتماعي والحقوقي... فهاتفني عمّي الجيلاني مازحا: «الحمد الله أنّك لم تتكلّم عندما بحثوك... وإلاّ لكنتَ ورّطتني معكم».

ولما أعدتُ كلامي ونحن نحتفي بفتحي وبجلبار النقاش «بالتياترو» خاطبني بالقول: «أنا لا أدّعي لنفسي هذا الشرف ... وأنا رجل لم أشتغل يوما بالسياسة ولم أدعُ إليها بل تحاشيتُها ... غير أنّني أجد في إصرارك على ادّعائك ما يسعدني وأفخر به».

كتاب «حوادث الجلاز» الذي وضعه عمّي الجيلاني مع رفيق دربه محمد المرزوقي يظلّ في نظري من المحاولات الأولى، إن لم يكن السّعي الأول، لكتابة تاريخ تونس الحديث خارج دائرة ما قرّرته السلطة الرسمية من حدود ومناهج لتاريخ تونس وتاريخ المقاومة الوطنية.

وفي الكتاب جهد بحث وتحقيق بيّن ومنهج تقرير وكتابة متعدّد الاختصاصات. وكذلك إيجاز وسلاسة يحبّبانه للقارئ.

ومع ذلك يراوغنا عمي الجيلاني ويقول إنّه ليس من المؤسّسين للثورة، والحال أنّ الثورة . بدءا و نهاية . هي عمل فكري ثقافي دافع للشكّ والتساؤل والتمرّد.

×××

اللوحة الثالثة:

لم أكن من أبناء عمّي الجيلاني أو أولاده أو مريديه المتهافتين أو المكترثين أو الحريصين، فكان كلما التقينا لا يلومني إلا بنظرة أو سؤال بعيد عن أن يكون لوما بيّنا... و إذ أراجع نفسي اليوم أجدُني قد قصّرت في حقّه عليّ،

وقصّرت أكثر في حقّ نفسي ولم أستفد كما تسنّت الاستفادة من هذا الرجل المتعدّد... غير أنني أجده قد دفعني برفق، لكن بحزم، وشدّ من أزري في محطات ومناسبات عديدة من حياته... وأذكر أنّ عمّي الجيلاني هو من حثّني على الانخراط في جمعية الصيانة جزيرة جربة. ولعلّه يكون قد فعل بعد أن حدّثه فتحي عما اكتشفه وهو يزور جربة لأول مرة، رفقتي، سنة 1981 أو 1982...

كما أذكر أنّ عمّي الجيلاني هو من حثّني على أن لا أنقطع عن الكتابة في جريدة «الجزيرة»، وعرف كيف يعاتبني برفق تنقاد له الإرادة كلّما لم يجد نصّا لي في عدد من الأعداد...

وعمّي الجيلاني هو من علّمني الصبر على النوائب... أذكر أنّه طلب منّي أن أرافقه إلى صديق لم يقابله من زمن بعيد هو عمّي الشاذلي بن غربال المربّي المعروف وواحد من خطاطي أيام الحركة الوطنية... وعندما غادرنا منزل الرجل قال لي عمي الجيلاني في همس أو شبه همس لكن مع بسمة لم أقرأ فيها الحزن بل الصمود: «أصدقة هي أن تتسلط علينا نحن الثلاثة نوائب الدهر وتجعلنا نواجه كلّ مع بنت من بناته مرضا عصيّا، مزمنا ونادرا و لا علاج له؟»

وبعد أن جلس أمام مقود سيارته أضاف: «أكتب يا صادق... لا تكفّ عن الكتابة».

عمّي الجيلاني كان إذن وأيضا معالجا نفسيا وصانع المستبسلين وزعيم البواسل.

×××

اللوحة الرابعة:

كنت أحيانا أمازح عمّي الجيلاني فأقول له إنّ فتحي قد بزّه و تفوّق عليه في إعداد المقرونة أواخر الليل وإنّني متأكّد من ذلك رغم أنني لم أذق سوى مقرونة فتحي...

وكان لا يردّ إلا ببسمة أو تحريك «شنبيه» أو نظارتيه...

وذات ليلة فاجأني بمقرونة نزلت بفتحي إلى المرتبة الثالثة، في إعداد المقرونة طبعا. أي بعد خالتي حبيبة و عمي الجيلاني.

×××

اللوحة الخامسة:

أنا من عشاق مدينة تونس العتيقة، أعشق التجوال في أحيائها و أزقّتها... وحدث أكثر من مرّة أن وجدتُ أو شاهدتُ أو حادثتُ عمّي الجيلاني وهو جالس على كرسيّ أو حشيّة أو متمدّدا على مصطبة بإحدى حوانيت سوق الوزر، أو يتناول فطوره بأحد مطاعم نهج الكتبية والأنحاء المحيطة بجامع الزيتونة. وسألتُه إن كان حنينُه الى أيام صباه وارتياده للجامع الأعظم هو الذي يدفعه الى المكان، فأجابني بأنّ حدسي قد يكون صحيحا، لكنّ عوامل أخرى تناديه الى هناك: رجال جمعت بين ممارسة التجارة وبين الثقافة، وعاشقون للجدل والحوار من كلّ هوى وخيار وتعوّدوا على أن يلتقوا في فيء المدينة العابقة تاريخا و فكرا...

و أذكر أنّني انتهيت إلى عمّي الجيلاني عضوا ناشطا في أكثر من نادٍ وأكثر من «صالون» وأكثر من جمعية... وتعلّمت منه أنّ للمنع والتسلّط وتكميم الأفواه والعقول دواءا بسيطا: أن نلتقي ونجتمع ونتجادل حيث استطعنا وكلّما استطعنا... بكلّ تلقائية وبساطة ودون أن نبحث ضرورةً عن رخصة ...

كما تعلّمت منه حينها أنّ أفضل الحوارات وأنجعها ما جمع بين أناس فرّقت بينهم الاختصاصات والاختيارات والأهواء و حتّى الأعمار.

×××

اللوحة السادسة:

ذات يوم، وكنتُ بسوسة، هاتفني عمّي الجيلاني ليقول لي إنّه سجّل اسمي بالإذاعة لأشارك في برنامج يبثّ مباشرة ويتناول بالنقاش أحد مجاميع النوادر التي اقتطفها من الثقافة العربية... اعتذرتُ متعلّلا بالمسافة ... لكنّه

أوضح لي أنّه قد قرّر بدلي وأن ليس أمامي غير أن أستجيب. وبعد ..... هاتفني مجدّدا ليقول إنّ لا شكّ عنده أنّني أدركتُ لماذا يحرص هو على أن أكون معه في البرنامج. وأغلق الخط... والتحقت بالأستوديو والبثّ على وشك أن ينطلق.

و خلال البرنامج طفقت أتحدّث عن الأيام، بل الأزمان الخوالي، وكيف كان الناس وقتها يضحكون من كلّ شيء وينقدون حتّى الدين والعادات والتقاليد ويمزحون ويسخرون من كلّ شيء حتى الخليفة والسلطان... وتعجّبت كيف غدا حالنا وتبدّل وضعنا وساء مآلنا ... ودفع عمّي الجيلاني أمامي بورقة خطّ عليها ما معناه: «لهذا دعوتُك أنت بالذات ... وأنا سعيد بفطنتك واصل».

×××

اللوحة السابعة:

يوم فُجعنا في عمّي الجيلاني غالب فائق . ولدُه . أساه وانتحى بي جانبا وقال لي: «أنتظر، بل ننتظر منك أن تؤبّنه».

فاجأني قول فائق لكنّه نزل في نفسي منزل الأمر لا الطلب.

وقادني عمّي الجيلاني، من مرقده ومن كيانه، إلى كتابة نصّ مختزل ارتعشت يدي وأنا أمدّه إلى فائق... و لكنّني سرعان ما اطمأننتُ وأنا أرى العائلة كلّها تقول لي إنه عليّ أن أقرأ النصّ تأبينا بالمقبرة. ولأنّني كنت قد حضرتُ موكب دفن الأستاذ محمد الشرفي وعشت تلك اللحظة الرهيبة التي مُنع فيها رفاقه وأحباؤه من تأبينه بدعوى أنّ لا تأبين بعد الوزير ممثل الدولة والرئيس، فلقد توقّعت سوءا...

في الجلاز أمسك فائق بي من ذراعي ووقفنا عند رأس فقيدنا وانتظرنا إنهاء وزير الثقافة لتأبينه، ثم دفع فتحي العميد محمد اليعلاوي ليضيف تأبينا استثنائيا باسم أصدقائه، وما إن بدأ في نطق «والسلام عليكم» حتّى اندفعت أقرأ تأبين العائلة ...

وبذلك أثبتَ الرجل مرّة أخرى تعدّده وتنوّع مريديه، و أثبتَ أنّه لم يكن ملكا حصريا للدولة التونسية الرسمية، بل ملكا مُشاعا بين الدولة الرسمية

والدولة العميقة وبين الناس جميعا ومنهم رفاق فتحي، بل رفاق عمي جيلاني بالحاج يحيى هو ذاته. وصحّ وصف فتحي الذي استعرتُه مطلع حديثي هذا.

(ألقيت هذه المداخلة في الدورة التجريبيّة للملتقى الملتئمة بتاريخ 26 أفريل 2013)

الأديب
الجيلاني بن
الحاج يحي
بريشة
الرسّام علي
عبيد

(2006)

الجيلاني بن الحاج يحي:
بصمة أب وأثر صديق

الأستاذ فتحي بن الحاج يحي

يسعدني باسم جميع أفراد العائلة أن أتوجّه بخالص الشكر للفتة الوفاء التي لمسناها لدى الاخوة والأحبّاء الكرام من جمعية صيانة جزيرة جربة ودار الثقافة فريد غازي بتنظيم هذا الملتقى السنوي ليحمل اسم الجيلاني بالحاج يحيى الذي طالما حلم جربة في وجدانه وكيانه لا كمسقط رأسه بل كتربة كسب فيها أصدقاء وإخوة من مشارب وأجيال عمرية مختلفة، وها هم اليوم يحتفون بذكرى اعتراف بتلك الوشائج التي صمدت إلى ما بعد الموت. ولربما أجد نفسي اليوم بوضع أقلّ أريحية مقارنة بالمتدخلين الكرام الذين جمعتهم صداقة حميمية بالمرحوم. فما يجمعني بهذا الرجل يصعب وضعه تحت المجهر ويعسر الوقوف منه بعد مسافة، لأتحدث عن رجل لا أعرف أين تبدأ بصماته على شخصي وأين تقف، ولا عندي سبيل لفرز جيني من المكتسب أو الوراثي الثقافي، فهو الأب الذي أنجب والمدرّس الذي علّم، وعلى فكرة، فقد كان يحملني معه الى مدرسة نهج طريق البلار حيث كان يدرّس ليحشرني في القسم وأنا في سن الرابعة، أي أنّ صورة الأب والمعلم قد تداخلت في ذهني منذ البداية. وهو مثقف معتدل فكرا وسياسة فكان يناقش توجهاتي اليسارية ببيداغوجيته التهكمية الطريفة حينا والصارمة أحيانا، والتي تبدأ فيها الجملة بالجدّ والصرامة مع إنزال نظاراته على مستوى الأنف ليحدق فيا مليّا قبل أن تتلاشى في نهاية مبهمة متراكبة الدارجة والفصحى تفسح

السبيل أمام الانفتاح وعدم الفصل في قضية لا يشاطرها ولكنه لا يبغي فيها تسلطا باسم الاب كأن يقول: «يعطيك خازوق على حناكك انت وماركس، كان قريت على روحك أفضل ولكنت نلت من العلم قسطا وأسقطت من الجهل نصيبا». وعندما أودعت السجن سنة 1975 طرأ نوع من الانقلاب في حياته وفي حياة العائلة حيث أصبح نسق وجودها منتظما على وقع الزيارات المتباعدة زمنيا أحيانا والمتقاربة حينا وفقا للقرارات الامنية، فكانت الوتيرة تتراوح بين الأسبوع وبضعة الأشهر والكيلومترات تضيق وتتّسع بحسب وجودنا في سجن 9 أفريل المندثر أو حبس الكاف أو معتقل برج الرومي، ولكنّ صدره لم يضق يوما طيلة الخمس سنوات ونصف من الإقامة في مناطق الذلّ، بل أصبحت السجنيات جزء من يومياته حاك حولها عديد النوادر والنكات تخفيفا لوطأة الحمل واستلهاما من عوامل لم يعهدها سابقا وعرف كيف يتصرّف في معطياتها وشخصياتها من حراس سجون ومديرين وبوليس سياسي. كان الكثيرون يخالونه مسؤولا حكوميا كبيرا زلّت قدم الدهر بابنه فكانوا يعاملونه بنوع من الاحترام المشوب بالحذر. أحد حرّاس السجون ببرج الرومي اقترب مني يوما ليثني على تواضع أبي رغم رفعة مكّانته، وفهمتُ فيما بعد أنّ الحارس كان واقفا أمام الباب الخارجي في يوم قرّ ومطر وصادف مع موعد الزيارة فاقترب منه والدي وكان يحمل وقتها معه كتبا ممنوعة أعيد تسفير غلافها بعناوين مباحة، وقال له ما يفيد بأنه من غير المعقول أن يظلّ عرضة للبرد والمطر «تى ها هو المرابيط خير منك في الدفاء»، ثم وعده بالنظر في الموضوع مع أصحاب القرار. وطبعا لم يعد في وسع الحارس تفتيش القفة حسب ما تقتضيه الأصول، ودخل الوالد والكتب السجن آمنين بسلام. ذات مساء بفضاء التياترو بالعاصمة كنت بصدد تقديم كتابي «الحبس كذاب والحي يروح» تلاه حوار مع الحاضرين فتدخّل أحد المثقفين من أصحاب والدي ضالع في العربية متمكّن من صرفها ونحوها وبعض ما تيسّر من بلاغتها ليعبّر عن تفاجئه من اختلال الصورة التي كان يحملها عن يساريّ تونسيّ كثيرا ما أردف بالفرانكفونية لغة وثقافة وتهمة فاذا به يكتشف في الكتاب ما جعله في حيرة من أمره وكان الوالد حاضرا

فأجابه: «الامر بسيط يا صاحبي، هؤلاء متخرّجون من جامعة برج الرومي وكانوا متفرّغين تماما للقراءة والكتابة، فإن أردت أن تنحو نحوهم وترتقي بقلمك إلى مقامهم فعليك بسنتين أو ثلاث هناك». ثم سكت برهة وأضاف: «بامكاننا أن نوصي بك خيرا فما زال عندنا. والحمد الله. معارف من الحراس والمساجين». هكذا هو الجيلاني بالحاج يحيى نكتة حاضرة تلبس ثوب الأناقة، وحضور دائم في حياة كلّ من عرفه، واهتمام متنوع بشتّى وجوه الثقافة من أدب وتاريخ وتحقيق وفن مكتبات، وكلّ ما يدور حول الكتابة ويوحي بالكتاب ويرجع الى الكتاب مع إقامة لعبة لغوية وجودية قوامها السير على خط شفاف يفصل بالكاد بين الجد والهزل وبين الفصحى والدارجة حتى في أحلك المواقف.

أول محطاتي معه كانت في سوق كتبية حذو جامع الزيتونة. كانت البداية سنة 1958 وأنا في الخامسة من عمري حيث يصطحبني صبيحة كلّ أحد إلى مجلس أدباء ذاك الزمان وأهل الفكر منهم، وأجالسهم حينا حتى تطلع روحي وفي قهرة على «ماتش كورة» فاتني في الحومة، فأنزوي بمستودع قبالة مكتبة عبد القادر طرابلسي حيث تتراكم أكداس الكتب التي أظل أتهجأ حروفها وأتفرّج على صورها في انتظار العودة إلى البيت. ومع مرّ الزمن وبين لزوم ما يلزم من طاعة الوالدين وضرورات قتل الوقت بدأ يتسرّب في عقلي فيروس القراءة والكتابة وعشق الكلمة والحرف التي بقي منها ما بقي، وبقيت أثار صور عتقها الزمن لوجوه استأنستها كوجوه حسن حسني عبد الوهاب ومحمّد المرزوقي والهادي عبيدي وحمادي الساحلي والطاهر قيقة والعراقي الفاضل الجمالي وغيرهم من المثقفين. وعندما تكون في البيت مكتبة، ترتفع حتما احتمالات الثقافة والمعرفة فما بالك بالتنقل الى حيث المكتبة وسوق الكتبية، أو مرافقة الوالد في زياراته المتعدّدة عبر أنحاء الجمهورية لتفقّد المكتبات العمومية التي كان مسؤولا عنها في وزارة الثقافة، وتلك حكاية تدخل في باب البصمة التي تترك أثرا يكاد يشبه الوشمة. وعندما يناديني كلّما عاد فرحا ب «أوزاليده» من المطبعة لمراجعة أخطاء الطباعة في القاموس الجديد الذي وضعه صحبة رفيقيه بلحسن بليش وعلي بن هادية، تجدني

أركن جانبه وأنا مراهق لمساعدته على الإصلاح ومقارنة الطبعة بالاصل، فأغتبط كلما عثرت على خطإ أو ما شبه لي أنه خطأ وأنا أسأل عن المفردات التي بها شرحت بها معاني الكلمات، وهي حكاية أخرى من حكايات تسرّب عشق لغة الضاد الى أوصال النفس. والحكايات لا تنتهي مع أبي وكلّ حكاية تثير وجها من أوجهه المتعدّدة ومنحى من مناحيه المتنوّعة. طبيعيّ اذا أن أظلّ ابحث عبثا عن شيء ما في محاولة يائسة لاختزاله في بعض المواقف التي قد تدلّ عن شخص دون استيفاء الغرض، وقد اكتفي بالإشارة إلى زرعه فينا أنا وأخوتي وأخواتي مفهوم احترام المرأة بداية من علاقته مع والدتي التي كان يصطحبها معه أينما حلّ في جولاته الأدبية ويتقاسم معها أعباء تربيتنا ويكنّ لها من الاحترام والحبّ ما لم يستأثر به أحد سواها، ونهاية بتعامله العادل بين الإناث والذكور، وهو ما خلّف فينا نزعة تكاد تكون وراثية في مفهوم المساواة دون الحاجة إلى التفوّه بشعاراته الكبرى، بل هي مجرد فعل بديهي وسلوك طبيعي يسري في سلوكياتنا لا يحتاج تدليلا أو برهانا. وهذه أيضا حكاية أخرى تسكن الصميم ولا تحتمل مزيد القول بل ربما الافضل أن تظل عالقة في الهوى مثل سحابة تظلّل النفس على أن تتحول سردا للمآثر بتراكيب وجمل ملّتها اللغة العربية التقليدية التي لم تخرج عن السعي بين الهجاء والمديح.

أما عن جربة التي عاد إليها في العشرينية الأخيرة من عمره، أو قل عادت فيه وإليه، فأصدقاؤه الحاضرون اليوم في هذا الملتقى والمؤسّسون له أقدر منّي على رواية تفاصيل هذه الهجرة المعاكسة باتّجاه المنشإ ولربما استرجاع وتدوين الاعمال التي قام بها والنوادر والطرائف التي اقترفها لشدّة ما كان يشعر به من راحة وطمأنينة بين أهله وأحبابه في هذا البلد الطيب.

وختاما لا يسعدني قبل إنهاء هذه المداخلة سوى التفكير بما أوردته في مقدمة «الحي يروح والحبس كذاب» من حديث عن الوالدة، وهنا سوف لا أعيد ما ذكره الصادق (بن مهنّي) من حكاية كتابته فهو مقطع صغير لم يكن واردا في البداية وألحقته إلحاقا بعد يومين من تسليم الكتاب للناشر وما زلت أتساءل الى اليوم عن سبب ذلك السهو أو الاسقاط أو التجاهل والحال أنني أفردت ذلك بفقرة كاملة تقديرا منّي لعمل النملة التي قامت به صحبة عائلات المساجين، وللابتسامة والتفاؤل اللذيْن لم يفارقا محيّاها طيلة حياتها ولأشياء أخرى. ربما يعود السبب الى خوفي من أن أخطأ المرمى في قول ما قد لا يتناسب وربما خشيت أن لا تسعفني كلمات في رسم ملامح شخصية لا أعرف متى كانت بدايات انطباعها في كياني وكيف سكنت ثنايا النفس. ولا سبيل للحديث عن المنتهى، والانتهاء على ربما ولقد ولعلّ وهلم جرّا، فثمّة على الأقل سبب واضح لا غبار عليه وهو أننا دأبنا على معايشة درر حياتنا اليومية فلا نتوقّف عندها سوى نادرا بحكم دخولها في باب العادة والرتابة البديهية كقولك تعاقب الليل والنهار، ولا ندرك عزّتها على النفس وقيمتها في كياننا سوى يوم نفتقدها. ومن حسن الحظ أنّني تفطّنت في آخر لحظة وتجرأت على كتابة ما أتى على ذكره الصادق قبل حين ليقرأه أبي وهو مازال على قيد الحياة وفي كامل صحته.

(ألقيت هذه المداخلة في الدورة التجريبيّة للملتقى الملتئمة بتاريخ 26 أفريل 2013)

مع الظرفاء

إعداد الأستاذ
الجيلاني
بن الحاج يحي

كان الأستاذ الجيلاني بن الحاج يحي حريصا على الإسهام بقلمه في جريدة «الجزيرة»، واختار لنفسه ركنا أسماه «مع الظرفاء» فيه من الطرافة والظرافة ما يدخل البهجة على نفس القارئ، وكان يختار بعناية نصوصه إمّا من وحي معايشاته أو من مخزون ما قرأ واطّلع ووثق من تراث في أدب الفكاهة. وكان أوّل من يرسل مقاله مكتوبا بخطّ يده، مشكولا لا يغفل فيه عن نقطة أو فاصلة، وحالما يتّصل بعدد من الجريدة يرسل بمقاله للعدد الذي يلي ممضى بـ «حافظ الودّ، الجيلاني بن الحاج يحي». مع إضافة نكتة في آخر كل مقال، حرصا منه على أن يكمل القارئ قراءة المقال بابتسامة. ومن غيره كان حريصا على أن يرسم الابتسامة على الشّفاه كلّما كتب أو حدّث ! رحمه الله.

في ما يلي نموذج من مقالات أديبنا الرّاحل، نُشر في العدد 223 من «الجزيرة» بتاريخ أفريل 2007.

القاضي النطّاح

يُحكى أنّ أحد القضاة، كان إذا استاء من أحد المتّهمين، ينطحه. فبلغ هذا الأمر إلى الملك، فاجتمع بالقاضي وسأله:

ـ أصحيح أنّك تنطح المتّهمين ؟

فقال القاضي:

ـ نعم يا مولاي.

فقال له الملك:

ـ وما الدّاعي للقيام بهذا النّطح، وأنت تعلم أنّ القانون يمنع ذلك ؟

فقال القاضي:

ـ إنّ الضرورة تدعوني إلى ذلك في بعض الأحيان يا مولاي، والضّرورات تُبيح المحظورات.

وأرجوك يا مولاي أن تشرّف المحكمة بحضور جنابك اليوم، لعلّك تمنحني عُذرا في القيام بطريقة النّطح.

وحضر الملك فعلا إلى المحكمة، وجلس وراء ستار حتّى يسمع ما يدور، وكان المتخاصمان دائن ومديون، فادّعى الدّائن أنّ له بذمّة المديون خمسين دينارا.

اتّجه القاضي إلى المتّهم المديون، وسأله:

ـ ماذا تقول في هذه التهمة ؟

المديون: صحيح يا سيّدي القاضي إنّه يريد منّي هذا المقدار.

القاضي: ولماذا لم تسدّد له هذا المبلغ المستحق عليك؟

المديون: لأنّ هذا المبلغ ليس متيسّرا لديّ الآن.

القاضي: إذن، نقسّط لك هذا المبلغ، فتدفع له كلّ سنة ٢٥ دينارا على مرّتيْن.

المديون: هذا أمر لا أستطيعه يا سيادة القاضي، لضيق ذات اليد، وللكساد المخيّم على البلاد في الوقت الحاضر.

القاضي: وما رأيك لو قسّطنا المبلغ لتسدّده على خمسة أقساط، فتدفع عشرة دنانير كل سنة.

المديون: هذه مسألة لا أقدر عليها يا سيادة القاضي، لأنّ حالتي المادية لا تمكّنني من ذلك.

القاضي: طيّب، نقسّط لك المبلغ عشرة أقساط، فتدفع كلّ سنة خمسة دنانير.

المديون: يصعب عليّ ذلك يا سيادة القاضي، لأنّني لا أقدر على ذلك.

القاضي: إذا نقسّط المبلغ إلى خمسين قسطا، فتدفع كلّ سنة دينارا واحدا.

المديون: لا. لا يا سيّدي القاضي، من أين أحصل على هذا الدّينار لأسدّد به هذا الدّين ؟

وهنا التفت القاضي إلى الدّائن، وقال له:

- يظهر أنّ صاحبك هذا مفلس، لا يستطيع أن يدفع لك شيئا من دينك عليه، فالأحسن أن تسامحه، والله لا يضيع أجر المحسنين !

فقال الدّائن: سامحتُه، وأبرأت ذمّته لوجه الله الكريم.

فقال القاضي لهما:

- لقد انتهت دعواكما، فتصافحا، واذهبا في حال سبيلكما.

فلمّا سمع المديون ذلك، صاح بأعلى صوته:

- هذا غير ممكن يا سيّدي القاضي، فأنا لا أخرج من المحكمة قبل أن آخذ تعويضا من خصمي الذي أهانني، ونال من شرفي.

فقال القاضي:

- ومن هو خصمك الذي أهانك، ونال من شرفك ؟

فقال المديون:

- هذا الذي رفع ضدّي هذه الدّعوى، وأفسد سمعتي.

أمّا الملك الجالس وراء الستار يتابع ما يجري في هذه المحكمة، فانفعل انفعالا شديدا، وصاح مخاطبا القاضي:

- ما لك صابرا لا تنطح ؟ انطح، انطح، انطح، !!

نكتة العدد

قالت امرأة لزوجها:

- لم تعد تأتيني بهدايا خلافا لما كنت عليه زمن الخطوبة.

فأجابها:

- وهل رأيت أيّتها الحبيبة صيّادا يطعم السّمكة بعد صيدها ؟

شهادة

كان للأديب الجيلاني بن الحاج يحي عدّة اهتمامات فكريّة ثقافيّة من المناسب شرح بعضها والتذكير بالمراحل الثقافيّة التي أسهم فيها بصورة جادّة وعميقة، فهو من جيل تميّز برباطة الجأش في مواجهة الصّعاب بداية من حياة الطلب العلمي والتدرّب على الشؤون الحياتيّة وفق تقاليد الأسرة في الجنوب التي تحرص بشدّة على ترسيخ جملة من التقاليد الاجتماعيّة.

نادي القصّة: الموقع والأبعاد:

كان الأديب الكبير الجيلاني بن الحاج يحي أمين عام النّادي الثقافي «أبو القاسم الشابي» بالورديّة خلال فترة تأسيس نادي القصّة الذي كان مطمحا ثقافيا بالنسبة للنّادي الثقافي إذ يتّضح من خلال أمسية ثقافيّة حول القصّة نظّمها النّادي وجاء في بطاقة الدعوة ما يلي: «إنّ النادي الثقافي يتمنّى بعث «نادي للقصّة» في أقرب الأوقات». والدّعوة ممضاة من قبل رئيس النّادي الثقافي آنذاك الأستاذ محمّد بن عمارة.

تشير الوثائق إلى الدّور الذي اضطلع به الأستاذ الجيلاني بن الحاج يحي في بعث هذا النّادي وتركيز نشاطه في مرحلة التأسيس (1964/62)، إذ كان الكاتب العام والمنسّق والمعلق كتابة بالصحافة السيارة. كما عمل على بعث المجلس الموسّع للنّادي الثقافي . وله جلسات يدعى إلى حضورها ثلّة من العلماء والأدباء والفنّانين إذ اعتبر (نادي الشابي) في تلك الفترة قطبا ثقافيا ووطنيا استقطب الشرائح الثقافيّة والعلميّة فكنت تشهد في الصدارة: محمود المسعدي . الشيخ الفاضل بن عاشور . حسن حسني عبد الوهاب . سليمان زبيس . الشيخ محمد المختار بن محمود . عبد القادر المهيري . محمد اليعلاوي . حمادي الساحلي . الطيب العنابي . الطاهر قيقة . العروسي المطوي

. الهاشمي زين العابدين . محمد مزالي . محمد صالح الجابري . عزالدين المدني . الهادي نعمان . الصادق مازيغ . نورالدين صمود . جعفر ماجد . عبد القادر القليبي . الشاذلي القليبي . البشير العريبي وغيرهم.

إنّ انعقاد مثل هذه الجلسات في فضاء النّادي الثقافي «أبو القاسم الشابي» بالورديّة طرحت فكرة ضرورة بعث خلايا اختصاص تابعة للنّادي الثقافي مثل نادي الكتاب والمكتبة، ونادي التصوير ونادي المسرح وبه الفنّانان رؤوف بن يغلان ونورالدين عزيزة . ونادي الموسيقى.

أمّا نادي القصّة فحديث بعثه في فترة 1964 وبرغبة واضحة من الهيئة المديرة للنادي الثقافي . كما يشير رئيسه الأستاذ محمد العروسي المطوي في مذكّرته إلى الهيئة بتاريخ 1964/11/16: «إنّ نادي القصّة وقد استعدّ بعد إلى تعميق النّظر في المنهجيّة الأدبيّة التي يرغب في اتّباعها مع حريّة نشاطه على مبدإ أنّ النّادي الثقافي في توجّه نشاطه للنهوض بالقصّة والرواية التونسيّة والتعريف بكتابة هذا الجنس الأدبي على اختلاف شرائحهم العمريّة والأدبيّة».

تميّزت العشريّة الأولى لنادي القصّة (74/64) بدفع أساسيّ لنشاطه من قبل الهيئة المديرة للنادي الثقافي وكان المنفّذ والمتابع لها الجيلاني بن الحاج يحي..

كان الجيلاني بن الحاج يحي . بصراحته ومواقفه المبدئيّة من نادي القصّة والنوادي الأخرى . يسعى إلى بعث مكتبة عموميّة في صلب النادي الثقافي وقدّم دراسة تحليليّة للتدليل على أهمية دور الكتاب متعدّد الاهتمامات والمشاغل. وأشهد أنّ خلال اللقاءات التي كنت أحضرها بوزارة الثقافة في تلك المرحلة كان سي الجيلاني يطالب بدعم النادي الثقافي ونادي القصّة في صلب اللّجان القطاعيّة بوزارة الشؤون الثقافيّة في الستينات والسبعينات في لقاء نظّمه النّادي الثقافي (1965/10/15) حول القصّة التونسيّة دعا الأستاذ الجيلاني بن الحاج يحي نيابة عن الهيئة المديرة إلى ضرورة مؤازرة «نادي القصّة» باعتباره أبرز حدث ثقافيّ يستقطب اهتمام الكتّاب والدارسين في البلاد، بل لعلّه سيكون القطب الأدبي والثقافي في الوطن العربي.

الكتاب والمكتبة

إنّ مواقف الجيلاني بن الحاج يحي بخصوص الكتاب والمكتبة تندرج ضمن الخصال التي يتمتّع بها هذا الأديب، فقد كتب عديد المقالات حول هذا الموضوع عن إيمان ومعرفة بأهمية الكتاب والمكتبة حتّى أصبح مسؤولا بوزارة الشؤون الثقافيّة عن تسيير القطاع ومرجعا أساسيا من مراجعه، إذ كان يوضّح ويقترح ويباشر الموضوع بوعي المسؤول والأديب وهذا ما لا يتسنّى لمن لا يمتلك هذا الهاجس الفكري والأدبي. لذلك نعتبره سندا للكتاب يدافع عن وجوده وضماناته وحقوق الكاتب الأساسيّة.

إنّ الأديب الجيلاني بن الحاج يحي باهتماماته المتنوّعة باللّغة والقواميس وبالمعجميّة إذ هو من مؤسّسي جمعيّة المعجميّة العربيّة بتونس صنوة للنّادي الثقافي وناد القصّة بالذّات، كتأسيسه لعديد الجمعيات الأدبيّة والثقافيّة (النادي الثقافي أبو القاسم الشابي، واتحاد الكتاب التونسيين ونادي الأحد وأحباء الكتاب) متسلّحا برؤية ثاقبة في هذه الشؤون مع أريحيّة أهّلته بأن يكون من أنصار «الأدب المريد» أدب الحياة.

ولقد استوقف انتباهي اهتمامه بعلي بن غذاهم بمناسبة الاحتفال بذكراه (1964/1884) من خلال المهرجان الذي نظّمه النّادي الثقافي «أبو القاسم الشابي» بالورديّة وقد اشتملت فعالياته على إلقاء المحاضرات المنوهة بهذا التأثر وتنظيم مسابقة مسرحيّة ولعلّ وثائق الصحافة التونسيّة المحفوظة في أرشيف النّادي خير دليل على نوعية ذلك النشاط الذي كان يختاره النّادي الثقافي ويتابعه الجيلاني بفطنة وإحاطة شاملة.

من مهام تنشيط النادي

خلال الموسم الثقافي 1977/76 انتدبت ملحقا بوزارة الشؤون الثقافيّة لتنشيط النّادي الثقافي أبو القاسم الشابي، وذلك برغبة ملحّة من سي الجيلاني بن الحاج يحي فاعتمدت حال مباشرة هذه المهام على حصيلة ثقافيّة هامّة في ميدان التنشيط الثقافي وجدتها في وثائق النّادي وكلّها من

إعداد الجيلاني بن الحاج يحي، إضافة إلى المتابعات الأدبيّة التي كنت حريصا على اعتبارها مرجعا في شؤون عدّة منها: «السينما الثقافيّة» التي نسجت دار ابن خلدون خطوطها وأيضا «نادي المسرح»، و«نادي الأدب».

وقد اغتنمت فرصة تعرّفي على المعهد العالي للتنشيط الثقافي وحاولت ربط الصّلة به للاستفادة من وثائق النّادي واستطعت بذلك أن أدخل عالم التنشيط.

مع الطرافة الأدبيّة

يتمتّع الجيلاني بن الحاج يحي بميل خاص إلى الطرافة الأدبيّة، وهو يؤمن بمتابعة هذا الأسلوب في علاقاته البشريّة حتّى اعتُبر المجلس الذي يحضره من أمتع وأقرب المسالك للفكاهة، فلك أن تستمع إلى الذكريات من معين لا ينضب من مثقّف يؤمن بالودّ والتوادد... وعلى هذا اختار عن رويّة دراسة وتحليل ذاكرة العادات والتقاليد التونسيّة مع الحشايشي وغيره.. كما تعلّق بحبّ المواقع والمعالم ومأثور العبارة وهنا نجد تفسيرا لصلته بالأديب محمد المرزوقي والتي قد أنجبت العلاقة التأليفيّة التي جمعتهما مع ما تميّز به سي الجيلاني أيضا من علاقة باللّغة والقواميس مع المربّي البليش وغيره على أنّ الطرافة الأدبيّة التي تمتّع بها أحاطته بالتقدير والودّ وذلك طريق الأديب الحقّ.

محمد يحي

الأستاذ الفاضل حافظ الودّ
الجيلاني بن الحاج يحي في ذمّة الله

الأستاذ لطفي الجريري

كنّا في أسرة تحرير «الجزيرة» منهمكين في اللمسات الأخيرة على صفحات هذا العدد ومادّته حين داهمنا نعيُ الأستاذ الفاضل والمربّي الجليل والأديب الألمعيّ والصحفيّ الرّائد والمثقّف القدير والمحقّق الثبت والكاتب الغزير والصّديق العزيز و«حافظ الودّ» المرحوم الجيلاني بن الحاج يحي.

وقع علينا الخبر وقوع الصّاعقة، لا لأنّ أستاذنا وصديقنا المرحوم معصومٌ من الموت والفناء، حاشا لله، ولكن لأنّنا لم نستعدّ يوما لحقيقة موته وغياب ضحكته وطلّته ونكتته عنّا هكذا فجأة. ونسينا . والإنسان نسّاء . أنّ عمّ الجيلاني «رجل يأكل القديد ويمشي في الأسواق»، وأنّ شأنه من شأن غيره من النّاس، يترصّده الموت والغياب في أيّ لحظة.

آه يا سي الجيلاني، يا أستاذنا وصديقنا الودود... كيف لنا أن نتأسّى أو نسلو؟.. وكيف لنا التسليم بفداحة غيابك ورحيلك إلى ملكوت آخر غير دنيانا هذه، وقد ملأتها وشغلت فيها النّاس بذكرك، حاضرا وغائبا، قادما وراحلا.

وكم هو فوّاح ذكرُك يا سيّدي. وكم هي بليغة موجعة عميقة، حسرة النّاس عليك، ممّن عرفوك وعاشروك وأحبّوك، من تونس حيث مقامك مذ كنت يافعا صغيرا، إلى جربة حيث موطنك الأصلي وأرض آبائك وأجدادك.

عرفناك يا سيّدي وسمعنا عنك من صغرنا، ومنذ يفاعتنا الأولى ونحن على مقاعد الدّرس أو نلتهم ما يقع لدينا من كتب مختلفة. وقد كنت في ذاكرتنا المكتبيّة الأولى، قرين الكتّاب أمثال المرحومَيْن محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي، محقّقا أو مؤلّفا ومؤرّخا.

وغاب اسمك برهة في زحمة الأعلام الذي شغفنا بقراءة ما كتبوا وما

تركوا من نصوص سحرتنا، قصّة ورواية، ليعود ساطعا علينا من جديد وقد عزّزه حضورك الماديّ عيانا. وقد كنّا وقتها، زمن عودتك إلى مدى بصرنا وبصيرتنا، كبرنا قليلا وشرعنا نخوض مع الخائضين في دنيا الكتابة والصحافة والقلم. كنّا نسمع عنك باستمرار، وتأتينا أخبارك وتصلنا أنباء جديدك متواترة، بما كان يملؤنا اعتزازا وزهوا لأنّك من رجالات هذه الجزيرة رغم نأيك عنها بالإقامة في تونس، في الحاضرة المحروسة التي عرفت كيف تحتضن خطاك الأولى منذ أربعينات القرن الماضي، وتمنحك آفاقا مشرعة على دروب الأدب والصحافة والكتابة والتأليف والنشر والبحث الحرّ.

لقد اخترتَ يا سي الجيلاني أن تحترف الحرف والكلمة احترافا، رغم صناعتك الأصليّة معلما مربّيا، ثمّ متفقّدا في عالم المدرسة التونسيّة الحديثة والفتيّة في سنوات الاستقلال الأولى.

اخترتَ أن تعاشر الكتاب معاشرة الخليل العاشق، والصديق الوفيّ، والأب الحاني، فاصطنعت لنفسك ولبيتك وأسرتك مكتبة زاخرة مشهود بنفاستها. ولم تكتفِ بذلك، بل مضيتَ تضيف إلى المكتبة التونسيّة والعربيّة مصنّفات كثيرة من إبداعك وجهدك في ألوان وألوان من الأداب والمعارف. كان سخاؤك وكرَم روحك الحرّة، ونبل عنصرك يدفعك كلّه إلى العمل بلا كلل وإلى الإنتاج المستمرّ، ومواكبة ما يستجدّ في ساحة الثقافة والفكر والنّشر، بهمّة الشّباب وحماسه، إلى آخر رمق من عمرك الثرّ. ولم يمنعك رسوخ قدمك في ميادين دقيقة ومنيعة مثل التحقيق، تحقيق النّصوص ووضع المعاجم. وهما من مجال لا يسلس قياده إلاّ لمن كان في مثل علمك وسعة إحاطتك وخبرتك بالمتون. من الانفتاح على صنفيْن من الكتابة، ربّما تجد في المتأدّبين من حولك من يستعلي أو يربأ بمقامه عنهما، لما قد يتوهّم فيهما من «خفّة» و«بساطة» ونعني أدب الأطفال وما أدراك ما ذاك، ثمّ أدب النكهة والفكاهة.

عقلك الحرّ. سي الجيلاني. وأنت الزيتونيّ العريق، رغم الشهادات التي حصّلتها بعد الزيتونة، من مدرسة ترشيح المعلّمين بتونس إلى معهد أمناء المكتبات بجنيف. وروحك المطمئنّة، جعلا منك الأستاذ الذي عرفنا، منفتحا ومعتدلا ومتواضعا ورحب الصّدر، تقبل الاختلاف وتدافع عنه دفاعا صريحا، ومنتميا باعتزاز إلى لغتك المعطاء وثقافتك العربيّة الإسلاميّة وتربتك التونسيّة، فسخّرت جهدك وقلمك لخدمة القيم التي رضعتها وتشبّعت بها.

ورغم الخطط الإداريّة المميّزة التي أنيطت بعهدتك في حقليْ التربية والثقافة، ونهضتَ بأعبائها بإخلاص وتفان وعطاء غزير، فإنّك أدركت بأريحيتك أنّ الوظيفة مهما سمت في سلّم المراتب، زائلة عابرة. ولا فخر ولا ثمر يعدل ما يكون بالقلم والتأليف والإبداع والبحث الحرّ، يثمر في الدّنيا ما ينفع النّاس، ويبقى على الأماد ذكرا وفخرا. كنتَ في كلّ ما نشرت من كتب ومصنّفات، وفي صفحة التعريف بك مؤلّفا ومصنّفا، تصرّ على الإشارة في شذرات ترجمتك إلى أنّك أحلت على التقاعد الوظيفيّ بطلب منك. وكنّا نستظرف منك ذلك لبلاغة الإيحاء وعمقه.

انطلقت قصّتك مع جريدتنا سنة 93 وببادرة منك. وكأنّ الجزيرة. بالفارق بين تواضع امكانياتها المادية وطموحها الإعلاميّ البعيد. قد ذكّرتك حين اكتشفتها هنا في جربة، بتجربة شبابك في أواخر الأبعينيات، عندما طفقت تصدر باكورة همومك الأدبيّة وشغفك بالكتابة والصحافة، فكانت مجلّة «وحي الشباب» التي أسّستها، من وحي شبابك وطموحك والتصاقك بقضيّة بلادك المكافحة، وبثقافتها النّاهضة.

اتّخذت ركنا في الجزيرة «مع الظرفاء» مدّة. ثمّ ما إن اضطرّت الجريدة إلى إجراء بعض التعديل في أبوابها مرّة، حتّى مضيْتَ بحرص الوالد الغيور على نجاح أبنائه، تلحّ على استئنافك الكتابة في ركنك سبيلا من سبل الإسهام في ما تقترحه «الجزيرتان» جربة وجريدتُها، من مادّة صحفيّة ثقافيّة فكريّة. فكان مقالك الدوريّ أوّل ما يصل مكتبنا دوما من مواد العدد، كلّ عدد يصلنا في موعده، بخطّك الجميل الرشيق مشفوعا بعبارات الملاطفة والودّ. آه كم كنت لطيفا وأنيقا يا عمّ الجيلاني، حضورا ومراسلة وكتابة.

ولن ننسى. حسرة وأسفا. أنّك قد فاتحتنا في المدّة الأخيرة برغبتك في الإشراف على صفحة ثقافيّة تامّة بالجريدة، كنّا ننوي ائتمانك على حظوظها، ونحن نعلم يقينا أنّها لديك أغلى الودائع، وأنّك عليها أنسب مؤتمن.

لقد عرفت تونس كلّها كيف تسدّد بعضا من ديونها لك، أنت الذي لم تبخل على حياتها الثقافيّة وأدب ناشئتها وشبّانها، ولغتها وأعلامها، وخبايا تاريخها وحضارتها، بعلمك وأدبك وإبداعك، فأسندت إليك ما كنت به جديرا من التشريف والتكريم، في مناسبات مختلفة أبرزها يوم قلّدتك الصّنف الأوّل من الوسام الوطني للاستحقاق الثقافي سنة 2001.

أمّا علاقتك بجربة مسقط رأسك وموطن أبائك، فإنّها قصّة تُروى. وقد قلتَ عنها ذات سمر في برنامج تلفزيّ مع محاورك الأستاذ فرج شوشان منذ أسابيع لا أكثر، أنّك شعرت بالبُعد عن جربة زمنا طويلا. وأنت غادرتها منذ سنّ السّابعة. ولكنّها منذ عدت إليها في كبرك، زَكَت قيمتُها لديك وربت في وجدانك، حتّى صرت تتصيّد الفرص اصطيادا لزيارتها، كلّما سنحت الفرصة أو سرّحتك المشاغل وما أكثرها على الأفذاذ أمثالك.

تعوّدتَ عمّ الجيلاني أن تقيم في نزل «الرياض» بحومة السّوق كلّما أتيت إلى هنا، ثمّ صرت في المرّات الأخيرة تفضّل الإقامة في نزل «المشرق» ودوما وسط المدينة، قريبا من النّاس وحركتهم ومواعيدهم. وكثيرون كانوا ينتهزون انتهازا فرص وجودك في جربة للفوز بلقائك والاستمتاع بصحبتك ولو لوقت قصير. ولم تكن تبخل على أحد. وكم كنت حريصا على المبادرة بزيارة من تعرف من أولاد بلادك، ومن ظلّت تحفظ لهم ودّا صافيا وبشاشة لا نظير لها، ولطف معشر صار لدى كلّ من عرفك مضرب الأمثال.

وتدفّق حبّك لجربة. وقد كان دفينا عندك سنينا وأعواما شغلتك أثناءها العاصمة وشواغلك فيها. تدفّق عذبا غزيرا صافيا كالماء الزلال. وكأنّك كنت تسابق الزّمن، شرعت في إصدار عدد من الكتب عرّفتَ فيها بثلّة من أصيلي الجزيرة من أهل الفكر والثقافة والقلم والنّضال الوطنيّ، ونفضت عن ذكرهم غبار التغافل والنّسيان.. «البشير الفورتي» شيخ الصحافة، و«التيجاني بن سالم» الكاتب الاجتماعي، و«سليمان الجادوي» الأديب الطلائعي، و«صالح بن يوسف». وكأنّما الأمر دين تقضيه بأمانة الضميريْن لديك، قامتك الفكريّة الوطنيّة، وتعلّقك بالانتماء إلى جربة، موطن أولئك الأعلام الأفذاذ ذوي الفضل، والفضل يعرفه ذووه، وأنت منهم يا أستاذنا الفقيد.

ولقد أسررنا إليك عمّ الجيلاني آخر مرّة قُدّر لنا فيها أن نراك، ونحن نتحدّث عن كتابك في المناضل الزعيم «ابن يوسف» بمدى تشوّفنا إلى أيّ شيء يمكن أن يُكتب ويُنشر عن مناضل وطنيّ كبير من أبناء هذه الجزيرة، بقي مهضوم الجانب لأنّه لم ينل إلى اليوم حظّه من الذّكر والتخليد، رغم حجم ما قدّم من تضحيات وما ميّز سيرته من سموّ ورفعة وتجرّد وإخلاص لتونس وكفاحها، وهو المرحوم علي الزليطني. وكم سُررنا باستحسانك الاقتراح، وقد اتّفقنا وقتها على التعاون في جمع ما يمكن من معطيات ووثائق وشهادات حتّى يتسنّى لك في وقت قريب التفرّغ للكتابة عن هذا العلم، بالدقّة التي ترضيك والمستوى الذي ضمنته لسابق ما ألّفت وأرّخت. ولكنّ الله فعّال لما يريد، وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله.

وفي جربة، ومنذ انتظام زياراتك وأوباتك إليها، صرت المشارك المواظب، النشيط والسّاعي الحريص لنجاح ألمع تظاهراتنا ومناسباتنا الثقافيّة في ملتقى البشير التليلي بميدون، وملتقى سليمان الجادوي بأجيم. وكانت آخر المناسبات التي شهدت مشاركتك وحضورك المميّز ندوة مسرح العرائس التي نظّمتها لجنة ميدون الثقافيّة، وقد أسهمت فيها بمداخلة قيّمة موضوعها مسرح العرائس بتونس ونشرتها جريدتنا في إبّانه.

ولئن كانت مشاغلك والتزاماتك حين احتفال جريدتنا بثلاثينيتها في جوان الماضي قد حرمتنا وجودك بيننا، وتشريفنا بحضورك في عيدنا، فإنّ الجزيرة وقد كنت سي الجيلاني ممّن رسّخوا لديها قيم الوفاء والعشرة وتوقير المناضلين بالقلم والإبداع. قد تشرّفت بزيارتك في بيتك في المنزه الخامس بالعاصمة لتسلّمك وفي حضور الفاضلة زوجتك ورفيقة أيّامك الأخت «حبيبة ابن الحاج يحي»، الوسام التقديري بمناسبة الثلاثينية، تكريما لشخصك وإسهامك الدّائم المميّز في صفحات الجزيرة، ودعمك الأدبيّ لها الذي لم ينقطع. وكان فخرنا شديدا يا أستاذنا بما أبديته لنا وقتها من اعتزاز وسرور بالوسام المتواضع.

من عرفك سي الجيلاني مثلنا عن قرب، ومن فاز بصحبتك ولو للحظات أو سعد بصداقتك ومودّتك الصافية لأعوام معدودات، أو لعمر كامل، كلّنا نجمع

«حافظ الود» الجيلاني بن الحاج يحي يتوسّط ثلّة من أصدقائه على هامش حفل تكريم انتظم على شرفه. من اليمين إلى اليسار، السادة: الطاهر بن تنفوس، ومحمد كربول، والجيلاني بن الحاج يحي فلطفي الجريري والأديب منّوبي زيود

اليوم ونحن نودّعك ذاهبا عنّا إلى جوار الرفيق الأعلى أرحم الراحمين، على أنّك كنت قد جمعت فأوعيت. ونحن هنا لا نقصد علمك وأدبك وما اكتنزت من معارف، ولا نقصد ثقافتك الواسعة الرفيعة، فذلك ما تحدّث به الركبان وتشهد به آثارك التي تركت للأجيال من جهدك وتأليفك وأدبك وظرفك، وتشهد به أيضا مكتبتك الضخمة أغلى ما ملكت وذخر أعوامك، الذي وهبت نصيبا منه لميدون ومكتبتها وشبابها. إنّما نحن نقصد طبعك الإنسانيّ السّامي، وسجاياك ودماثة خلقك وابتسامتك الدائمة ودعابتك الظريفة ونكتتك المليحة وحلاوة حديثك، كلّما تحدّثت فأخبرت أو ناقشت أو جاملت أو جادلت أو تندّرت. كان زمن الجلوس إليك قصيرا مهما طال كلّ مرّة. وكلّ مرّة كنّا نغنم الكثير الكثير من لطفك وروحك السّمحة السخيّة.

كنّا نعرف أشياء من حميمياتك وخصوصياتك، ونعرف أنّ الأيّام لم تكن بك دوما رفيقة، ولا كان الدّهر مساعدا. كنّا نعرف أنّك كابدت محنا شديدة لوّعتك مرّات، إذ دفعت بأحد أنجالك إلى السّجن أعواما طويلة لنشاطه السياسيّ، وحكمت على إحدى كريماتك بالمرض والإعاقة جرّاء حادث سير غاشم، وفجعتك في شقيق ذات فيضان أهوج مفاجئ. ولم تكن رغم ذلك شكّاء ولا متذمّرا أبدا. وكان ديدنك أن تهوّن على نفسك وعلى محدّثك وجليسك وطأة الأشجان، فلا يغادرك ولا تتركه إلاّ على كركرة الضحكات العميقة العفويّة تخرجها من أعماقه نكتك الظريفة. تلك كانت هداياك سي الجيلاني دوما لجلاّسك. ومَن في الرّجال مثلك يسخو بالهديّة، هديّة الضّحك والإسعاد في كلّ الأوقات والظروف، وعند كلّ تحيّة في القدوم وفي الوداع.

في آخر زياراتك لجربة، أتيت تتابع شأنا شابهتَ فيه كثيرين مثلك من الجرابة الذين حكمت ظروفهم أو ظروف أبائهم أن يغادروا الجزيرة مهاجرين إلى خارجها من أعوام، وظلّت صلتهم بها متقطّعة متباعدة الحلقات. أتيت آخر مرّة لموعد من القاضي العقّاري لمتابعة ما سيؤول إليه إرثٌ لك في ميدون أوْشك أن يضيع. ولا شكّ أنّ حرصك على متابعة الموضوع بجدّ، وفوق كونه حقّا لك ثابتا هو بالأساس. وفي الأصل. من حرصك على استرجاع كلّ ما يمكن أن يعيدك إلى جربة ويعيد شيئا من جربة إليك. نقول هذا يا عمّ الجيلاني لأنّنا نعلم حجم زهدك في «وسخ الدنيا» أنت الذي بقيت تفاخر متفكّها بأنّ أملاكك وثروتك، كجربيّ عريق في العاصمة ومن أسرة عريقة، هي فقط كتُبُك التي اقتنيت ومؤلّفاتك التي نشرت.

نم قرير العين سي الجيلاني. فإنّ جربة لم ولن تغادرك، تماما مثلما تراك هي مقيما أبدا فيها، وإن وارى ثرى العاصمة جثمانك الطاهر. واهنأ يا أستاذنا بفخر الذّكر الذي تركت بعدك، وطيب العطر الذي نشرت حولك ما عشت في النّاس. وثق أنّك في وجدانهم ووجداننا. ونسأل الله أن يقدّرنا على حفظ الودّ والوفاء إليك، أنت حافظ الودّ. وإلى الله تعالى نبتهل كي يبرّد ثراك، وينزلك فراديس جِنانه، جزاء ما بذلت في حياتك من سخيّ المكرمات.

رحمك الله ... إنّه الرحمان الرحيم.

(«الجزيرة» ـ العدد 257 ـ ماي 2010)

pha Kheraïef ou Hédi Hammou débitaient un poème en prétendant que cela venait du Moyen-Orient, on appréciat ces poèmes. Lorsqu'on savait que c'était leur oeuvre, on en dépréciait la valeur intentionnellement ! Avant surtout, on pensait que tout ce qui venait du Moyen-Orient était bon et que tout ce qui était produit en Tunisie était mauvais. Mohamed Laâroussi El Métoui a même écrit un article sur cela.

C'est pour cela sans nul doute, le recueil de poèmes de Chabbi a été publié au Moyen-Orient et nous est venu d'Orient.

- Oui, autrement il aurait eu un destin peu reluisant.

(Fin)

Jilani Ben Haj Yahia en compagnie de Othmane Kaâk

Recueil réalisé par: Lotfi Jeriri

Vous vous êtes occupé de la biographie, un genre nouveau et difficile. Notre histoire littéraire et éditoriale moderne n'en comporte pas beaucoup. Pourtant, il y a eu, à en croire Abdelmagid Ben Hamda, des biographies en Tunisie dès le Xe siècle, le plus vieux document en la matière, à savoir tabaqat oulama ifriqiyya wa tounis *de Abi El Arab, qui date de l'an 944. Puis il y a eu* Riadh Ennoufous *de Malki (1046),* Maâlim el iyman *de Dabbagh,* Chajaret ennour ezzakia *de Mohamed ben Mohamed Makhlouf Monastiri. Ensuite, il y a eu* Ithaf ezzamen *d'Ibn Abi Dhiaf. Au XXe siècle, Cheikh Fadhel Ben Achour a réhabilité le genre notamment dans* Al Haraka al adabiyya wal fikriyya fi tounis, Aâlam el fikr el islami fi tarikh El Maghreb el arabi, Tarajim al aâlam et Arkan ennahdha el adabiyya bitounis. *Pourquoi y a-t-il désormais peu de biographies de ce genre ?*

- Moi, j'ai travaillé sur des biographies de seconde main surtout à l'occasion des annotations de livres célèbres. Cependant, j'ai écrit un livre, non encore publié, ne comportant que des biographies.

Et pourquoi n'avez vous jamais publié d'oeuvre littéraire de création pure ?

- Je crois que la recherche et l'annotation d'un livre, quel qu'il soit, sont un acte de création immense. Ceux qui ne savent pas ce que c'est ne peuvent s'imaginer les difficultés que cela comporte. Et puis cela vous séquestre et vous empêche de faire autre chose. C'est de la création. J'ai publié également des livres de contes pour enfants. Au début, je l'avais fait sous des pseudonymes en tirant ces histoires des Mille et une nuits du temps où je travaillais au centre national pédagogique. Un jour, j'ai présenté ces nouvelles à un concours de contes pour enfants de la Ville de Tunis. J'ai remporté le premier prix et je ne l'ai su que bien plus tard par hasard.

J'ai écrit également trois oeuvres de synthèse littéraire, de satire et de bouffonnerie intellectuelle, à savoir *Ennadim* (le commensal), *Anis el jalis* et *Tarouih ennoufous*.

Mais vous semblez avoir une préférence pour l'annotation, le commentaire et l'introduction de livres d'auteurs célèbres ou méconnus. Quelle est la personnalité culturelle tunisienne qui vous a le plus marqué ?

- C'est Abou El Hassen Ali Ibn Abd El Ghani El Fehri, plus connu sous le nom d'*El Housri*. C'est un monument, un homme de sommet à l'échelle universelle. En Grande-Bretagne, j'ai rencontré le directeur du Département oriental, un orientaliste. De toute l'histoire littéraire de la Tunisie, il ne retenait qu'El Housri. Quand il a su que c'était moi qui avais annoté et fait connaître ses oeuvres, il m'a traité avec beaucoup d'égards.

Et quelle est la personnalité tunisienne dont vous souhaitez ou souhaiteriez faire la biographie ou annoter les oeuvres ?

- Je publie sous peu les biographies de Slimane Jadoui, Béchir Fourti, Mohamed Badra, qui était le premier président de l'Association des écrivains tunisiens et qui avait fait venir Bayrem Ettounsi pour combattre le vieux Destour dans le journal *Ezzaman*, également des biographies de Thaâlbi, Mohamed ben El Khoja, Mohamed Ben Othmane El Hchaïchi, Mohamed El Marzouki. Ce dernier était chevaleresque et très cultivé. Cependant, j'aurais souhaité faire la biographie de l'Imam Ibn Arafa. C'était un homme talentueux et il avait des positions fameuses. Saâd Ghrab a travaillé sur lui, mais j'estime qu'il y a des choses encore à révéler et à faire valoir de lui et de son oeuvre.

Conssidérez-vous que vous ayez participé à la création d'une génération d'encyclopédistes en Tunisie ?

- Nous avons repris le flambeau de nos prédécesseurs, à savoir Othman Kaâk, Hassen Hosni Abdelwahab et bien d'autres... qui sont nos maîtres incontestés.

Et il y a une nouvelle génération qui prend la relève sur la vôtre ?

- Je ne la vois pas. J'ai offert ma bibliothèque à la bibliothèque de Midoun. Je déplore que les bibliothèques soient devenues si indigentes. Et malheureusement, je ne vois plus de travail sur le patrimoine. J'ai beaucoup d'amis universitaires que je respecte et la réciproque est vraie. Mais il y a aussi beaucoup d'universitaires qui ont uniquement des diplômes illustres en poche et ne font guère de recherches ou de travail approfondi. C'est le cas de certains cheikhs zeïtouniens qu'on cite volontiers pour leur grande culture mais qui n'ont rien écrit. Le Cheikh Zaghouani était un illustre Uléma, mais il n'a rien laissé. L'homme peut toujours faire oeuvre utile en s'adressant aux autres, en propageant la culture, et en partageant le savoir et le bon goût.

Et puis, je voudrais tant que les cercles intellectuels tunisiens dépassent l'autoflagellation et cette propension à minimiser la valeur du travail d'autrui.

Lorsque nous nous attablions au café Kachachine et que Musta

n'avais pas encore de l'expérience dans l'écriture, genre dans lequel il excellait, et il me donnait des conseils précieux. Parfois, il me sommait d'écrire quelque chose séance tenante, sans en référer aux sources. Nous nous attablions également au café El Kasba.

C'était un homme très cultivé, un grand journaliste et un grand homme de lettres également, un poète qui a fait partie du groupe Taht Essour...

- Oui, j'en garde un très bon souvenir ainsi que de Mustapha Khraïef et son frère Béchir Khraïef. Ce dernier s'attablait au début au café El Maghreb à Bab Bhar où il réunissait une pléiade de jeunes écrivains et poètes. Puis il a organisé un dîner chaque soir chez Eugène qui existait alors à l'entrée de la rue de la Mosquée Zitouna et chacun payait son dû tout en faisant la connaissance des autres.

Cette tradition de clubs de rencontres et de cafés culturels nous l'avons malheureusement perdue. Les lettrés se rencontraient dans des cafés, des restaurants, des boutiques, et beaucoup de grands intellectuels, lettrés, grands fonctionnaires et hommes d'esprit s'y réunissaient périodiquement...

- Je me souviens de Chérif Zribi, un des derniers *Dhourafaâ* qu'ait connus la Tunisie. Quoi qu'étant non lettré, il avait suivi de près les deux mouvements culturel-littéraire et politique qu'a connus la Tunisie. Il avait une grande culture sociale. Il avait une boutique au 118, rue El Marr où il fabriquait et revendait des tamis. C'était un passionné et un fin jouisseur du genre *tkarli*; il possédait trois ou quatre oiseaux type *canalou* ou *jghal*, un bélier de béliomachie, des pigeons nains, etc. Les après-midi, nous nous rendions dans sa boutique, Arbi Kabadi, Mustapha Bouchoucha, Othman Kaâk et bien d'autres. Et va pour les phrases d'esprit, le rire, l'art du burlesque, l'impertinence, le satire, la jovialité... Il était devenu à son tour un habitué du *Nadi el ahad* et quand il s'absentait la rencontre perdait toute sa saveur.

Et c'était quoi Nadi el ahad *?*

- C'était la boutique de Abdelkader Trabelsi. C'était un club qui a duré 35 ans sans discontinuer. Les fondateurs étaient El Marzouki et moi-même. Nous nous rendions à Souk El Koutbiyya près de la Mosquée Zitouna pour assister à la vente des livres à la criée. Certaines familles des ulémas décédés vendaient leurs livres à la ciée. Hassen Hosni Abdelwahab y venait tous les dimanches matin lui aussi et prenait place dans la boutique de Ali Asli, propriétaire de la librairie El Atiqa, qui était au souk de la laine, *Souk Essouf*. Un jour, en passant, nous avons trouvé Hassen Hosni Abdelwahab assis sur un tabouret. Je lui ai proposé de nous installer dans la boutique de Abdelkader Trabelsi où il y avait deux fauteuils confortables. Depuis, le club a vu le jour et s'est étoffé au fil des jours quoique sélectivement.

Et qui en étaient les habitués ?

- En plus de Mohamed El Marzouki et de moi-même, il y avait au début Othman Kaâk, Hassen Hosni Abdelwahab, Abdellatif El Hamrouni le magistrat, puis dans une seconde étape Laâroussi El Métoui, Tahar Guiga, Tijani Mhammdi, etc. Je suis également un habitué du *Nadi el joumâa* qui existe encore à la maison du magistrat à la retraite Mahmoud Chemmam. C'est un homme qui a écrit beaucoup de biographies et de livres sur les clubs tunisiens, les Sadikiens...

N'est-ce pas lui qui a annoté le fameux Al Mouanis fi tarikh ifriqiya wa tounis *de Ibn Abi Dinar ?*

- Non, c'était son frère Mohamed Chammam, mais Mahmoud Chemmam est un homme unique, qui a tant donné à la culture, en plus de sa grande carrière de haut magistrat.

Donc vous êtes, entre autres, un habitué de bien des clubs et cénacles dont vous avez fondé quelques uns... mais pourquoi Nadi el ahad *a-t-il cessé d'exister ?*

- A la mort de Abdelkader Trabelsi, *Nadi el ahad* s'est déplacé à la maison de Slaheddine Jouini, et à la mort de ce dernier, le club se tient désormais au bureau de *Ziryab*, le musicien Salah El Mehdi, à la rue de Palestine.

N'empêche que les clubs informels comme il s'en tenait au café L'univers, le Florence, chez les Nègres ou ailleurs ont disparu. Je crois même que leur disparition nous prive de l'éclosion de bien des talents dans divers domaines...

- Ces clubs sont le vrai poumon de tout homme de culture ou de lettres, lequel ne peut s'attabler partout et dans tous les milieux. Ces clubs créent une dynamique et imprègnent les esprits des créateurs. Je me souviens des rencontres avec Arbi Kabadi. C'étaient des cours magistraux, il racontait la littérature avec brio. Il connaissait et récitait par coeur pas moins de 3 mille vers. Il parlait en poésie.

- Je l'ai connu au cabinet de *Sî* Mahmoud Messaâdi: nous travaillions sur *Kharidat el Kasr oua jaridatou et asr* d'El Imad el Isfahani sous la direction de Hassen Hosni Abdelwahab. Nous nous rendions chaque dimanche après-midi chez lui à Salammbô. Il disait à sa femme *«tiens voilà Kalila wa Dimna qui s'amènent, ouvre-leur la porte»*. Un jour, il nous a proposé de nous atteler à *Kitab El Omr*. J'en étais réjoui mais Mohamed El Marzouki se taisait.

Une fois dans la voiture pour rentrer, il s'en est pris à moi et m'a dit que le travail était difficile, ardu et nécessiterait des années de labeur. C'est ainsi que nous avons eu l'idée d'en charger Mohamed Laâroussi El Métoui qui n'était plus diplomate à l'époque, qui n'avait pas d'occupations et qui est très compétent en la matière. Bref, nous en avons parlé à Hassen Hosni Abdelwahab et il a accepté. Mohamed Laâroussi El Métoui travaille dessus jusqu'à aujourd'hui et en a publié deux parties volumineuses et je crois savoir que la troisième partie paraîtra bientôt.

Il y a aussi votre amitié avec Hamadi Sahli, une amitié profonde, exemplaire... et qui a été émaillée elle aussi d'oeuvres en commun...

-Je l'ai connu lorsque j'avais obtenu avec *Sî* Zakaria Ben Mustapha une bourse à l'UNESCO. Nous avions fait le voyage ensemble. Mais comme j'étais zeïtounien quoique maîtrisant le français, on a voulu me tester pour mon stage à Genève et je fus dirigé par Messaâdi sur Hamadi Sahli pour me tester. Il m'a reçu aimablement et mon test a été couronné de succès. Plus tard, nous avons travaillé ensemble au cabinet de Messaâdi.

A l'époque je bouillonnais intellectuellement. J'étais secrétaire général du club culturel Abou El Kacem Chebbi à El Ouardia que j'ai fondé avec Mohamed Laâroussi El Métoui et Mohamed Ben Amara. Hamadi Sahli, lui, était un homme réservé qui n'avait guère de fréquentations ni d'attaches culturelles. J'ai fini par en faire un habitué de notre club culturel et il y a même donné une conférence sur la littérature de la dérision de Hassine Jaziri et consorts. C'était sa première activité culturelle publique.

Depuis, il y a excellé et nous sommes devenus inséparables jusqu'à trois jours de sa mort, en juillet 2002.

Et Hédi Laâbidi, vous étiez très proche de lui paraît-il ...

- J'allais dans son bureau au local d'Essabah tous les deux jours à la rue Dabbaghine à l'époque. Il m'avait appris un tas de choses. Je

el kofr). *Fait révélateur, pour en revenir à la photo, le Cheikh Tahar El Haddad y était flanqué du Cheikh Salem Ben Hamida à sa droite et du Cheikh Mohamed Saïdi à sa gauche tandis qu'une petite fillette préfigurant certainement le symbole de la future Tunisie indépendante, républicaine, éclairée et récusant l'obscurantisme, lui tendait un joli bouquet de fleurs...*

- Oui, *Ennahdha el ilmiyya*, sorte de conseil «scientifique» de la Zitouna, s'était réunie et avait décidé l'abolition et la révocation de diplômes et certificats de Tahar El Haddad. Mohamed El Marzouki et moi avions écrit ce livre par désir de défense de l'homme; Hédi Laâbidi nous avait encouragés dans cette entreprise. Il m'en parlait souvent et me racontait comment ils s'attablaient ensemble au café El Kasba, comment certains le frappaient avec des tomates et le persécutaient. Vous savez, même les personnes qui osaient s'afficher avec Tahar El Haddad étaient persécutées et caillassées.

On sait qu'il est mort précocement à 37 ans dans des conditions pénibles, pauvre, malade, tuberculeux, mal vêtu, mal nourri, entouré d'un cercle restreint d'amis et de fidèles. Il a été victime d'une campagne atroce, de l'obscurantisme et de l'intolérance.

- Oui, nous avons fouillé dans les documents, interrogé des témoins etc.; chaque jour, nous nous rendions dans un local que nous avons loué à Hédi Saïdi, fils de Brahim Saïdi, pour 10 dinars par mois. Il était situé au dessus du café de Kairouan rue Al Jazira. Nous y travaillions de 19h00 à 23h00 ou minuit chaque jour après le boulot. Ensuite je raccompagnais Mohamed El Marzouki chez lui et je rentrais.

A l'époque, ne fut l'abnégation de ma chère épouse, mes enfants seraient perdus. Quand ils étaient malades, je lui laissais le prix de la visite médicale et des médicaments et sortais très tôt. Le soir, très tard, je m'enquérais de leur état de santé. Mohamed El Marzouki m'accompagnait également lors de mes visites dans les régions quand je me rendais aux bibliothèques pour inspection. Il était féru de poésie populaire et en profitait pour recueillir des poèmes dans les contrées les plus éloignées de l'arrière-pays. Moi-même je suis devenu un passionné de poésie populaire et une fois mon travail achevé, je courais les sentiers et les coins reculés pour recueillir quelques vers. Nous avons ainsi quadrillé tout le sud tunisien.

Vous deviez même écrire Kitab el Omr *de Hassen Hosni Abdelwahab avant que Mohamed Laâroussi El Metoui ne s'en charge...*

Après les cours, nous nous attablions près d'une heure au café Mzoughi à la rue Sidi Sayyed Ajoula. Nous avons abordé cette question et avons décidé de concevoir un dictionnaire alphabétique contenant tous les mots. Cela a duré cinq ans. En 1957, j'ai soumis le livre à *Sî* Mohmoud El Messaâdi qui a applaudi à l'initiative et a même demandé de recourir à des citations du Coran et du Hadith du Prophète Mohamed. Une fois le travail achevé, j'ai prié *Sî* Mahmoud Messaâdi d'en faire la préface. Ensuite Messaâdi m'a conseillé de proposer ce livre aux réunions de l'éducation des pays maghrébins parce qu'il était coûteux et volumineux, et il a trouvé l'encouragement requis. Nous avons déposé ensuite ce dictionnaire à la STD du temps de Azzouz Rebaï et il est resté dix ans en instance. Il n'a été publié pour la première fois qu' en 1979 alors que Ali Ben Hédia était décédé deux années auparavant, en 1977. Quant à Belhassen Blaïech, il est mort en 1996.

C'est une oeuvre monumentale qui a été rééditée dix fois. Elle contient près de 27 mille mots, 3137 versets du Coran, 387 Hadiths du Prophète, 304 proverbes arabes et 1663 vers... En somme, beaucoup d'amitiés intellectuelles ont jalonné votre parcours. On connaît votre amitié légendaire avec Mohamed El Mrzouki, Hamadi Sahli, Mohamed Yâalaoui... En plus de Hédi Laâbidi, Othman Kaâk, Hassen Hosni Abdelwahab que vous avez côtoyés et qui étaient vos aînés. Alors commençons par Zaourek Elyemm (anagramme de El Marzouki avec lequel il signait ses articles).

- Je l'ai connu très jeune. J'habitais à Souk El Blat et lui à la rue Sidi Ali Azzouz, à cent mètres de chez moi. L'après-midi, il était assis au café tout près de chez nous et entouré de gens du Sud, puisqu'il était président de la Fédération du Sud du Néo-Destour. Je m'y joignais et c'est ainsi que je l'ai connu pour la première fois. Il dirigeait aussi la page culturelle du journal Ennahdha et m'y a fait collaborer. J'ai écrit également à Ezzohra, Ethourayya, Essarih et bien d'autres journaux de l'époque.

C'était un homme fin, cultivé, plein d'humour. Son commerce était agréable et l'on apprenait bien des choses à le côtoyer. Par la suite, nous étions devenus inséparables et avons écrit des livres ensemble.

Et comment en est venue l'idée ?

- Je travaillais à la bibliothèque nationale avec Othman Kaâk, et Mohamed El Marzouki travaillait à la Direction du patrimoine, avec Hassen Hosni Abdelwahab dans le même bâtiment. Je feuilletais sou

vent d'anciens journaux dont le service dépendait du mien. Comme je parcourais les les journaux du début des années 30, j'y trouvais de nombreux articles dirigés contre Tahar El Haddad, des articles violents, écrits avec fiel et au vitriol. Je cherchais des réponses à ces articles et je n'en trouvais pas. Comme Mohamed Marzouki venait souvent dans mon bureau, je lui ai dit: «Qu'est-ce que que cette histoire ? Tahar El Haddad était vioemment pris à partie et il ne répondait pas», il m'a dit qu'il le connaissait et qu'il connaît bien son histoire et les campagnes de calomnie dont il a fait l'objet ainsi que les pressions visant à empêcher la publication de ses réponses. Je lui ai donc proposé d'écrire un livre en faveur de ce pauvre Tahar El Haddad en guise de soutien au brillant esprit. A l'époque, il n'y avait même pas de photocopie. Je copiais à la main tous les articles que je trouvais et il n'y en avait que trois ou quatre en sa faveur.

A l'époque, la charge des réactionnaires était puissante...

- *Sî* Béchir El Khangui m'a raconté un jour qu'il avait pris son courage à deux mains et avait publié deux ou trois articles en faveur de Tahar El Haddad dans son journal. Il a été lui-même violemment pris à partie.

Vous connaissez certainement le livre de feu Ahmed Eddoriî sur la vie de Tahar El Haddad, publié en 1977. Ce livre contient une superbe photo de plus de 80 personnalités au jardin du Casino du Belvédère à l'occasion de la cérémonie d'hommage à El Haddad le 17 octobre 1930 suite à la publication de son maître livre Notre femme dans la Shariaâ et dans la société. *On y reconnaît entre autres Jilani Hammar, Abderrahmane Attia, Taïeb Debbabi, Hédi Laâbidi, Zine El Abidine Senoussi, le Cheikh Mohamed Saïdi, le Cheikh Salem Ben Hamida, Sadok Chefiî, Tahar Boutouira, Mohamed El Aïd Kchok, Mohamed El Marzouki, Le Dr Ali Fourati, Laâroussi El Haddad, Taïeb Annabi, Mohamed El Manaâ, Hassen Essid, Mohamed laâziz Agrebi, Ali Jendoubi, Sadok Lejri, Yahya Hamrouni, Amor Dallouaâ, Ahmed Eddoriî, Youssef Lassoued... Ahmed Eddoriî dit que le journal El Alem el Adabi de Zine El Abidine Senoussi avait pris fait et cause pour El Haddad et son livre. Dans cet article, reproduit en partie dans le livre, il est rapporté comment certains se sont portés volontaires pour déclarer au peuple que Tahar Haddad était un apostat et son livre une apostasie tout en déclarant ouvertement qu'ils n'avaient pas lu le livre car, à les en croire, Allah les a épargnés de lire l'apostasie* (anna Allah qad barraâ sadrouhou min moutalaâti

de livres ou de manuscrits. Il faut savoir qu'à l'époque, le livre scolaire tunisien qui était édité au Caire et à Beyrouth, ne contenait guère de textes de Tunisiens, hormis de rares poèmes de Chabbi. Mohamed Laâroussi El Matoui a donc présidé la première commission chargée de mettre au point des livres scolaires avec une âme tunisienne et contenant des textes de Tunisiens. Elle a édité un livre intitulé *Ennoussouss el moufassara*, les textes expliqués. Quant à la seconde commission, elle a été présidée par *Sî* Mohamed Marzouki et j'en étais membre. Comme nous étions en contact avec *Sî* Zine El Abidine Senoussi, il nous a encouragés et conseillés de commencer par El Housri. Nous n'en savions rien à part qu'il était l'auteur du fameux poème *Ya laylou essabbou mata ghadouhou* et qu'il était aveugle. Il nous a dit qu'il avait le manuscrit des fameuses *Mouaâcharat* (le recueil des dizaines) et nous l'a montré dans son imprimerie. J'en ai trouvé une copie à El Abelliyya. Je l'ai moi-même copiée à la main. C'est une oeuvre magistrale. J'ai travaillé dessus des années durant avec Mohamed El Marzouki. Un jour que j'étais au Caire, j'ai rencontré Foued Sayyed qui dirigeait le service des manuscrits en Egypte et je lui ai parlé de notre travail de recherche et d'annotation des *Mouaâcharat*. Il a fait des recherches et nous avons trouvé toute l'oeuvre connue d'El Housri au Caire. Il m'a donné un microfilm du recueil d'abou El Hassen El Housri *Iqtirah el qarih wajtirah el jarih* (Ulcères et blessures) qu'il avait écrit à la mémoire de son enfant mort, et contenant plus de 3200 vers en guise d'épitaphe de son fils. Lors d'un second voyage, j'ai trouvé d'autres oeuvres. Le tout a servi pour le livre que j'ai édité avec *Sî* Mohamed Marzouki sur El Housri au tout début des années 60.

Vous avez étudié et annoté également le fameux livre de Mohamed Othman El Hchaychi sur les us et coutumes tunisiens, ainsi que celui de Mohamed Ben El Khoja sur l'histoire des monuments de l'unicité dans l'ancien et le nouveau avec Hamadi Sahli, et la vie et l'oeuvre de Tahar El Haddad avec Mohamed El Marzouki...

- Pour El Hchaychi, j'ai annoté aussi son livre sur l'histoire de la mosquée Zitouna avant les us et coutumes tunisiens.

Qui était un livre écrit en 1904 et dédié à l'administration coloniale dans son désir de connaître tous les aspects du pays et de son histoire...

- El Hchaychi ne croyait jamais que ce livre serait publié en arabe. Le secrétaire général de la Résidence française de l'époque, M. Roy, qui était un orientaliste parlant bien l'arabe, le lui avait demandé.

El Hchaychi courtisait M. Roy. J'ai un document, une lettre où El Hchaychi dit : j'ai une famille nombreuse nécessitant beaucoup de dépenses et je suis en butte à des difficultés immenses, c'est pourquoi je me suis jeté dans les bras de M. Roy. Il a dit que M. Roy lui avait demandé d'écrire ce livre en arabe, lequel livre serait traduit en français et donné aux colons français et européens avant leur venue en Tunisie afin qu'ils apprennent beaucoup de choses sur l'atmosphère générale du pays. Mais il n'a jamais été traduit à l'époque.

Ce livre est intéressant malgré les motivations intéressées de son auteur qui ne cachait pas d'ailleurs sa fascination pour la France et le colonialisme français; il avait écrit en 1883, c'est-à-dire moins de deux ans après la conquête coloniale sanglante et meurtrière de la Tunisie par la France, un livre intitulé Eddourra ennaqiyya fi ennaouaya essadika lilhoukouma elfiranciyya *(la perle pure des bonnes et sincères intentions du gouvernement français) !*

-Il a même été réédité et on est entrain actuellement de le traduire en français.

Un siècle après, un peu tard pour les colons non ? vous avez écrit également un livre sur la bataille d'El Jellaz avec Mohamed El Marzouki..;

- C'était mon premier livre et on l'avait édité à l'imprimerie El Manar de feu Tijani M'hammedi. Il a été réédité une seule fois et il est maintenant épuisé.

Vous avez publié également le Dictionnaire alphabétique, un ouvrage de la première importance...

- Je vous remercie pour avoir abordé cette question. Ce que je vais dire maintenant, je le dis pour la première fois. C'était en 1951 et j'étais un maître d'application non spécialisé assurément des dictionnaires. Dans mon école travaillaient également deux personnalités qui étaient de grands hommes d'une stature monumentale en matière d'éducation et d'enseignement: *Sî* Belhassen Blaïech et *Sî* Ali Ben Hédia, tous les deux décédés. Nous supervisions les maîtres stagiaires et nous avons remarqué que ces instituteurs n'expliquaient aux élèves que quatre ou cinq termes des dix termes assignés à l'avance. Ils nous disaient qu'ils avaient beau chercher, ils n'en trouvaient pas la signification dans le dictionnaire. Ils ne pouvaient pas revenir aux racines étymologiques des mots et cela nous effarait.

avons été admis. Après un stage d'une année, j'ai été désigné maître d'application à l'école Kheireddine, rue du Tribunal. Au bout de sept ans, j'ai été nommé inspecteur de l'enseignement primaire puis j'ai rejoint le cabinet de *Sî* Mahmoud Messaâdi, alors ministre de l'Education nationale, pour prêter main forte à Hamadi Sahli. C'est là que je l'ai connu en fait et qu'est née notre amitié.

Oui, c'était même une amitié légendaire, Hamadi Sahli étant mort il y a quelques semaines.

- C'était un homme très bon, éduqué et très courtois. Allah yarhmou...

Vous avez travaillé également à la Bibliothèque nationale ?

- J'y ai passé trois ans avec *Sî* Othman Kaâk. Ensuite j'ai été nommé directeur des Bibliothèques publiques après avoir passé une année universitaire à Genève en Suisse grâce à une bourse de l'UNESCO. Par la suite, j'ai rejoint le cabinet du ministre de la Culture avant de travailler à l'ALECSO et de revenir par la suite au cabinet du ministre de la Culture jusqu'à ma retraite.

Cela c'était le bureau et les égards du haut fonctionnaire, une carrière qui n'était guère très connue du grand public. Cependant, vous avez emprunté très tôt une voie à bien des titres unique, en entamant une carrière d'encyclopédiste, d'annotateur, de biographe... Pourquoi précisément cette voie que peu de gens ont suivie ?

- Lorsque j'étais à la Bibliothèque nationale, on m'a nommé directeur du service des manuscrits. Mon bureau était plein à craquer de manuscrits. A mes moments perdus, et je dois reconnaître qu'à l'époque nous n'étions pas très occupés, je parcourais ces manuscrits et j'en fus fasciné. Il y avait des enluminures, des calligraphies, des dessins bien fignolés. Je me disais: aujourd'hui les gens tâtonnent pour écrire une lettre à un parent ou à un ami, tandis que ces gens là ont dépensé des mois et des années à écrire parfois plus de 500 pages à la main et avec un nombre considérable de dessins et illustrations en prime... dès lors, j'ai été passionné par l'activité portant sur le patrimoine. En même temps, ces précieuses oeuvres étaient inconnues du grand public et végétaient sur des rayons empoussiérés.

Il faut dire qu'à l'époque où nous avions fondé *Nadi El Calame* en 1949, nous avions mis en place deux commissions, l'une s'occupant du livre scolaire et l'autre de la promotion du patrimoine qu'il s'agisse

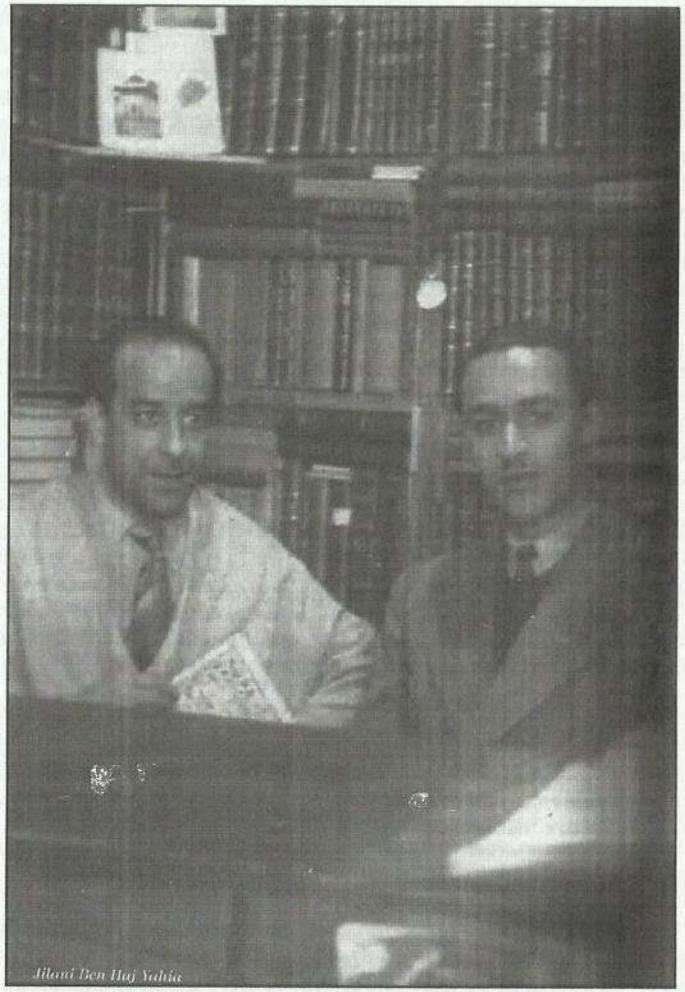

Jilani Ben Haj Yahia dans la librairie de Abdelkader Trabelsi

ans couronnés par le Tahsil. Parallèlement, je poursuivais des études à l'école Khaldouniyya la nuit et des études à l'institut des hautes études de la rue de Rome, actuel siège des journaux du RCD. *Sî* Hassen Zmerli était le secrétaire général de l'institut. C'est là que j'ai connu le professeur Mahmoud Messaâdi parce que nous prisions particulièrement les cours qu'il donnait.

Et où habitiez-vous ?
- A Bab Mnara.

Ce quartier et ses environs étaient depuis le début du siècle un haut lieu de la culture, des lettres et des arts à Tunis. Abou El Kacem Chebbi, Tahar Haddad, Bachrouch, Hlioui, Mhidi, Mustapha Khraïef et bien d'autres y avaient élu demeure. Je suppose que cela a dû vous influencer...

- J'étais étudiant à la Zitouna et le café Kachachine officiait comme l'unique club culturel et littéraire de l'époque. La rue de Koutbiyya était haute en couleurs. Il y avait huit revendeurs de livres à la criée quotidiennement. Je m'attablais au café Kachachine où s'attablaient de véritables pôles et grands maîtres de la culture de l'époque, tels Mustapha Khraïef, Tebîî Lakhrech, Hédi laâbidi, Mohamed Salah Mhidi et bien d'autres. Nous les écoutions parler et deviser de littérature, de culture, de poésie... Nous en devînmes de véritables passionnés. A l'époque, Zine El Abidine Senoussi ne s'attablait pas au café Kachachine mais dans la boutique de Béchir Khangui tout près, qui éditait le journal Lissan echchaâb. Beaucoup d'autres fins lettrés le rejoignaient.

Il y avait donc beaucoup d'illustres journalistes de l'époque. Ce qui explique peut-être que vous ayez fondé votre revue Ouahy echchabab *à 20 ans en 1949... Zine El Abidine Senoussi éditait lui aussi l'illustre revue* Al alem al adabi...

- Non, c'était bien après; il éditait alors le journal *Tounes* et avait l'imprimerie «Al Arab». Et précisément, c'était lui qui m'avait repéré. Il m'a dit: «Toi le jeune entreprenant, pourquoi tu n'édites pas un journal ou une revue ?», et c'est ainsi que j'ai fondé ma revue. Mais j'étais étudiant et je n'avais pas d'argent. J'ai donc fait le porte-à-porte auprès des Djerbiens à Tunis, dont la plupart étaient des grossistes ou boutiquiers aux bourses bien arrondies. Je leur proposais des encarts publicitaires dans ma revue, des petits encadrés en fait, pour l'équivalent de 500 millimes. D'autres me donnaient les 500 millimes et me dispensaient de l'encart publicitaire !

Quelqu'un a dit un jour: «La presse a une épouse, la liberté; elle a une maîtresse, la publicité». Vous semblez donc avoir débuté à la fois avec une épouse et une maîtresse. Et puis il y avait également des associations, à Tunis, de promotion d'étudiants djerbiens, dont vous étiez membre, telle l'Association Manar El Adab, fondée en 1949 sur l'initiative d'étudiants djerbiens. Son président était Youssef Mouaâdhen, son secrétaire général, Chedli Ben Ghorbal, et vous en étiez le «contrôleur général».

- Oui, j'étais également fondateur et président depuis 1947 de l'Association des étudiants de l'île. J'étais à l'époque habité par le démon nouveau de la fondation d'associations. Elles proliféraient et naissaient comme des champignons.

Et quel était le but de cette association ?

- En vérité, comme nous étions jeunes et peu connus, nous voulions rayonner. Dr Sadok Mokaddem avait son cabinet au 19, rue de la commission, qu'il louait auprès de mon père qui en était le propriétaire. J'y ai fondé le club pour avoir une couverture. Je m'adressais bien souvent à *Sî* Sadok Mokaddem pour superviser nos réunions et rencontres afin d'attirer l'assistance.

Ceci côté premières activités culturelles: elles n'ont pas entravé votre parcours professionnel naissant ?

- Moi je suis de ceux qui croient que tout homme doué ou talentueux a du temps à consacrer à la culture et aux choses de l'esprit en général. Nombre de ceux-ci, je l'ai souvent constaté, dépensent un temps fou à ne rien faire dans les cafés, les bars et aux jeux de cartes; cela dure parfois trois ou quatre heures par jour.

Donc le dosage entre la profession et la création est une question de gestion du temps ?

- Absolument.

Alors comment s'est opéré votre parcours professionnel à ses débuts ?

- Après la Zitouna, j'ai passé un concours à l'Ecole normale. Nous étions 1200 candidats et seulement 24 d'entre-nous, dont moi-même,

tés électives avec El Housri et Tahar Haddad, deux géants auxquels la misère des jours et la malveillance des mauvais esprits obtus ont réservé, en leur temps, un destin mendiant.

L'homme s'exercera avec brio dans un art plutôt ardu et ingrat: l'annotation, l'introduction et le commentaire d'oeuvres maîtresses et de maîtres livres étrangement demeurés inconnus ou sous le boisseau. Tel est le cas du Recueil des dizaines Al mouachcharate, ou des ulcères et blessures **Iqtirah al qarih wajtirah al jarih** *d'El Housri, pous lesquels il a dû s'expatrier et aller faire des fouilles dignes de bonnes vieilles taupes aux bords du Nil. Au fil des jours, il se taillera une place de choix parmi les rares encyclopédistes tunisiens.*

Talent révélé au grand jour, sa verve, sa modestie et son humour n'en démordront pas pour autant. C'est qu'il a toujours à coeur cette convivialité et ce brassage sans lesquels toute entreprise culturelle s'apparenterait à un prêche dans le désert. Et puis, il appartient à une génération qui a grandi à l'ombre de grands maîtres qui évoluaient dans les salons littéraires comme un poisson dans l'eau. Tel Hassen Hosni Abdelwahab ou Othmane Kaâk, deux illustres penseurs, historiens et publicistes qui ne réchignaient pas à s'attabler chaque après-midi ou presque dans la petite échoppe du fameux Chérif Zéribi à El Marr. Un artisan tamiseur dont l'impertinence succulente et la satire mordante avaient raison de la vanité de bien de pédants drapés de gloriole et d'orgueil. Et dont l'expérience de vieux routier qui a roulé sa bosse compensait l'illettrisme.

Jilani Ben Haj Yahia en héritera un caractère passionné mais point téméraire, érudit mais guère obséquieux ou sentencieux. Le tout sur fond d'un humour dans lequel il excelle non seulement dans la vie quotidienne, mais également dans maints livres destinés à faire rire intelligemment. En fait, en s'attelant à ce genre, il ne croyait pas si bien faire parce que, depuis des lustres, on rit beaucoup chez nous... même en grinçant les dents.

Aujourd'hui, c'est un homme qui a soixante treize ans mais qui en paraît beaucoup moins. Entreprenant, il garde toute la fraîcheur de son esprit qu'on devine, entre deux larges sourires, tourmenté et méditatif. Est-ce cette quête sourde de l'Imam Ibn Arafa dont il voudrait tant commenter et annoter les oeuvres ? Ou bien serait-il d'aventure hanté par les esprits et les voix de ses chers compagnons aux inflexions chères qui se sont tues ?

L'homme n'en dira rien. Mais suffit-il qu'on évoque en sa présence Mohamed El Marzouki ou Hamadi Sahli pour que toute son âme semble transportée ailleurs. Elle revoit sans nul doute cet étrange trio bouillonnant, passionné, tumultueux qui arpentait tout feu tout flamme les sombres ruelles de la Médina en quête de quelque vieux bouffon aux enseignements beaucoup plus instructifs que les envolées lyriques de tel ou tel tribun ou universitaire de renom. Il revoit ses vieux compagnons qui pétrissaient la durée à leur manière sur les sentiers des buts sublimes de la connaissance et de l'esthétique. Et les flots du souvenir et de la nostalgie montent en lui, saccadés et poignants. Le temps est somme toute une mesure conventionnelle et les journées sont par moments émaillées d'heures-couteaux...

****

Jilani Ben Haj Yahia, j'avoue qu'avec vous le fait intellectuel et culturel est multiple et ambigu. Vous touchez à tout et vous n'êtes pas le prisonnier d'un genre à part entière. Ainsi vous êtes écrivain, mais nullement romancier, poète, essayiste ou dramaturge. Vous êtes chercheur mais vous n'êtes pas historien, esthète mais pas un artiste, et la liste est encore longue... Et vous n'êtes pas non plus inclassable car, moi, je vous classerais volontiers sous la chapelle des encyclopédistes. Nous en reparlerons dans le détail, mais tout cela a un début...

- Oui, il va de soi. Je suis né à Midoun dans l'île de Djerba le 21 juin 1929. C'était alors un petit village très typique et j'aurais tant souhaité que Midoun demeure comme avant.

Djerba a une très forte tradition de lettrés. On dit même qu'il y a longtemps déjà, on n'y trouvait guère d'analphabètes, à l'instar des Béni Mzab en Algérie du côté de Ghardaïa.

- Oui, c'était véritablement exceptionnel et extraordinaire que les Djerbiens ne commencent pas leur vie de lettrés comme vous dites par le Koutteb. Moi aussi je suis passé par le Koutteb avant de rejoindre l'école coranique. Et puis mon père ayant été parmi les rares Djerbiens à venir à Tunis avec toute sa famille, je suis venu à Tunis encore enfant. J'ai été inscrit à l'école de la rue El-Kenz à Souk El Blat où j'ai obtenu le certificat d'études primaires. Au début des années 40, j'ai été inscrit à la Grande Mosquée Zitouna où j'ai étudié pendant sept

Jilani Ben Haj Yahia

Truculent, exubérant, effervescent...

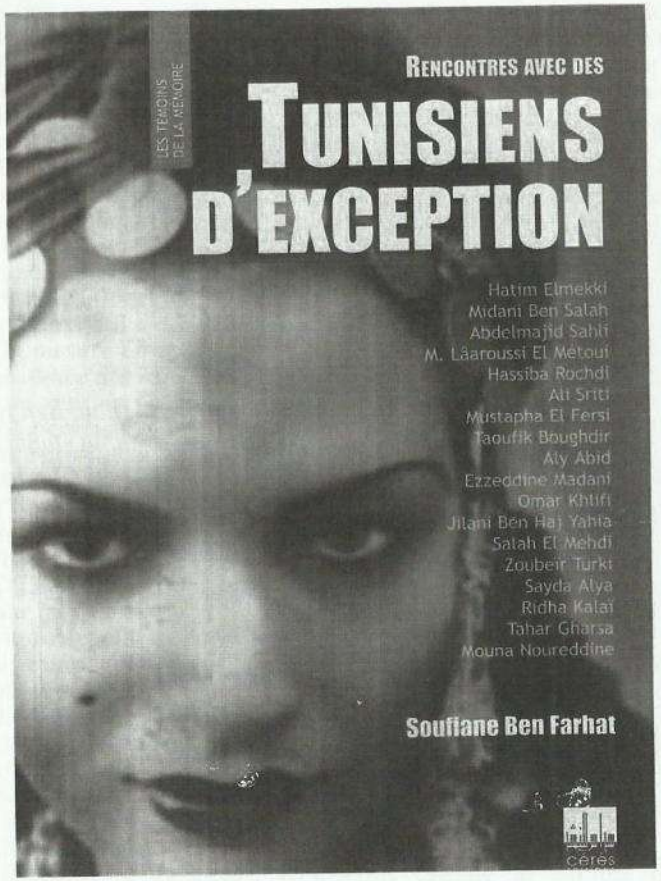

Dans son livre d'entretiens «Tunisiens d'exception» (Cérès éditions - 2002), le journaliste Soufiane Ben Farhat a consacré plus d'une vingtaine de pages à notre illustre défunt Jilani Ben Haj Yahia, comme étant l'une des personnalités tunisiennes les plus marquantes au 20è siècle. L'interview savamment conduite par Ben Farhat a porté sur l'itinéraire singulier de l'homme de lettres et l'encyclopédiste que fut Jilani Ben Haj Yahia.

Voici le texte intégral de cet entretien réalisé en 2001, qui éclaire une grande partie de l'oeuvre du pédagogue, l'homme de lettres et l'encyclopédiste qu'était notre illustre défunt Jilani Ben Haj Yahia.

La République des arts et des lettres a ses raisons que la déraison ignore. Ainsi en est-il de certains personnages sans lesquels la place culturelle n'aurait guère de goût ou de saveur.

Am Jilani Ben Haj Yahia figure parmi ceux-ci. Une tête bien faite, un regard scrutateur et pétillant et une allure de fouineur que ponctuent des envolées humouristiques à nulle autre pareille.

Vous prenez un rendez-vous avec lui ? **«Allah Ghaleb,** *vous lance-t-il tout de go,* **je serai obligé de vous payer un thé, mais venez quand même»!** *Et une fois vous le rencontrez, vous ne pouvez ne pas succomber à la mécanique de son charme.*

C'est que l'homme, à sa manière, trucule, exubère, et effervesce. Il compte assurément parmi les derniers fins esprits à la pertinence savoureuse, un tantinet pointue et irrévérencieuse que compte la Tunisie. En fait, c'est un habitué depuis plus de cinquante ans de ces rares clubs où une belle répartie excuse un mauvais dîner, et qui végètent malgré l'esprit du temps. Un temps, il va sans dire, livré aux implacables exigences du profit, au commerce et à ses vertigineuses courses effrénées pour faire du surplace.

Très jeune, le petit Djerbien qui débarque à Tunis, s'imprègne de culture et de bon goût. A telle enseigne qu'à vingt ans, en 1949, il lance un journal sur la place. Ce qui était destiné à être un pavé dans la mare le fait cependant remarquer, lui et ses compagnons. Car la sienne d'histoire est une chronique d'amitiés scellées dans le sang et de coups de coeur pour de grandes figures de la pensée, celles tout d'abord de ses compagnons Mohamed El Marzouki et Hédi Lâabidi, ses aînés. Celle ensuite du non moins regretté Hamadi Sahli, sans parler de ses affini

été la semence de la liberté et de la dignité du pays.

Comme je l'ai dit plus haut, la carrière de Si Jilani dans la fonction publique ne l'avait pas empêché d'exercer d'autres fonctions purement littéraires, qui sont de loin les plus importantes pour lui; ils feront de cet homme de lettres, l'encyclopédiste par excellence. Il est en effet, important de signaler que sa formation littéraire et sa connaissance de la langue arabe, feront de lui l'un des spécialistes de la terminologie de la langue arabe classique, ses expériences dans le domaine de l'enseignement, ses recherches et études ont fait l'objet d'ouvrages spécialisés. Nous lui devons entre autres le nouveau dictionnaire alphabétique. Préfacé par Si Mahmoud Massaâdi, ce dictionnaire a été conçu et élaboré avec la participation de deux enseignants chevronnés: Si Bel Hassen Blaîch (mort en 1977) et Si Ali ben Hédia (mort également en 1977). Depuis sa parution en 1979, ce dictionnaire a été réédité dix fois. Enrichi à chaque nouvelle édition de mille autres termes et explications, ce nouveau dictionnaire contient 27000 mots, 3137 versets coraniques, 16633 vers de poésie, 387 hadith du prophète Mohamed et moult illustrations en noir et blanc.

Telle est l'importance de cette fameuse oeuvre d'encyclopédiste, qui fait aujourd'hui autorité dans les institutions académiques arabes, dans la mesure où le contenu de ce dictionnaire fait la somme d'une connaissance des racines étymologiques des termes.

Je ne saurais oublier les réflexions de ce cher Ami généreux, à l'esprit perspicace qui était toujours prêt à faire avec gentillesse et humilité profiter de son vaste savoir tous ceux, et ils étaient nombreux, qui venaient le consulter.

A l'île de Djerba, ses amis les proches, tels Farid El-Kadhi et son épouse, Tahar et Aziza Ben Tanfous, Haj Hamida Ben Amara, El Haj Chedly Ben Yedder, Mustapha Ben Jemia, Lotfi Jeriri... me disaient que Cheikh Jilani qui était un homme d'un grand charisme, doté d'un humour très vif et ravageur, incarnait l'élégance masculine.

Je me rappelle de tous les merveilleux moments que j'ai passés en sa compagnie dans son bureau, lieu d'une impressionnante bibliothèque!

Plus d'une fois, je l'ai vu, à la suite d'une conversation ardue à caractère philosophique, historique ou littéraire, partir d'un trait vers les rayons de sa bibliothèque pour revenir à la main un livre ouvert à la bonne page, le visage éclairé d'un large sourire...

Ce grand frère qui était heureux toutes les fois qu'il pouvait venir en aide à un ami, n'est plus.

Il disparut brutalement; ils'éteignit comme la flamme d'une bougie foudroyée par le vent brusque, laissant ainsi comme aurait dit Mahmoud Derouiche «*sur nos coeurs une masse de cendres*!»

Une grande tristesse entoure la disparition de ce grand ami qui fait honneur aux Lettres Tunisiennes.

Pour moi et pour les amis communs du défunt, le nom et les oeuvres de cheikh Jilani Ben Haj Yahia, demeureront comme le plus pur fleuron de Djerba et une gloire de la Tunisie.

Allah Yarhmou!

(Al Jazira - N° 258 - Juin 2010)

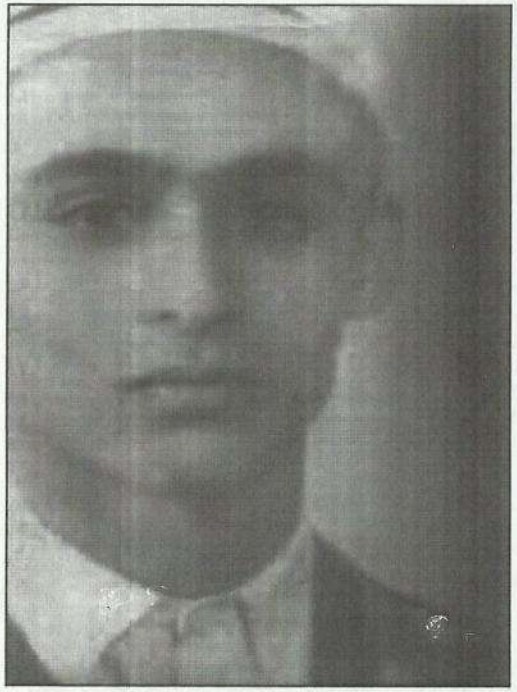

Jilani Ben Haj Yahia étudiant à la Zitouna

les fameux ouvrages littéraires et de poèsie des auteurs autochtones, tels Abou El-Hassen El-Housari, Tahar Haddad, Abou El-Qacem Chabbi, Othman El-Hchaychi...

Le premier livre de Si Jilani sur la bataille d'El-Jellez, fut élaboré avec son fidèle ami Mohamed El-Marzougui, tant si Jilani disait qu'il était un homme «*chevaleresque et très cultivé*.»

On a souvent dit qu'il y a des choses providentielles dans la vie d'un être!

Et ces choses méritent d'être connues: une chance extraordinaire a fait que le père de Si Jilani ait élu domicile à Béb Ménara, un quartier qui était au début du 20ème siècle un haut lieu de la culture, des lettres et des arts. Et Si Jilani s'est épanoui dans ce quartier et ses environs, qui étaient le fief d'un groupe d'intellectuels connus sous le nom «*Taht Essour*», et d'autres grandes figures de la pensée, auxquelles, disait Si Jilani, «*la misère des jours et la malveillance des mauvais esprits obtus ont réservé, en leur temps, un destin mendiant*!»

Si Jilani qui s'attablait aux cafés où les lettrés, comme Si Mustapha et son frère Béchir Khraïef, Si béchir El-Khangui et bien d'autres, réunissaient une pléiade d'individus curieux, de jeunes étudiants ou écrivains et poètes, faisait de plus en plus d'autres connaissances, entre autres celle du célèbre journaliste, Si Hédi Laâbidi. Ce dernier lui donna de plus amples renseignements sur la situation précaire des hommes progressistes, tels le Prince des poètes Cheikh Abou EL-Kacem Chabbi et l'illustre Cheikh Tahar Haddad, qui furent inhumainement traités, persécutés et mis au ban! Comme nous le savons, tout deux moururent dans la fleur de l'âge!

Profondément touchés par le sort tragique de ces deux célèbres et sincères compatriotes, victimes d'une campagne atroce de l'obscurantisme et de l'intolérance de quelques éléments réactionnaires de la Zeitouna, Si Jilani et Si Mohamed El-Marzougui ont écrit, en guise de soutien au brillant esprit le livre intitulé «la vie et l'oeuvre de Taher El-Haddad.» Ce livre a été écrit par désir de défense de l'homme violemment pris à partie dans une campagne de calomnie, orchestrée par de puissants théologiens réactionnaires, notamment cheikh Salah Ben Mrad, qui n'ont pas hésité à qualifier Tahar Haddad «d'apostat», et son livre - Notre femme dans la chari-â-, «une apostasie!»

Comme nous pouvons le constater, la tradition de fréquenter les clubs de rencontres et les cafés culturels par les lettrés, les universitaires, les écrivains, les poètes, les grands fonctionnaires, a créé une dynamique et imprégné par là-même les esprits des créateurs.

Plus d'une fois, Si Jilani avait exprimé ses vifs regrets de constater la disparition d'un bon nombre de ces clubs et cafés de culture qui étaient «*le vrai poumon de tout homme de savoir ou de lettres*!». Et d'ajouter: « *je crois que leur disparition nous prive de l'éclosion de bien des talents dans divers domaines* ».

On le comprend d'autant plus aisément que chaque rencontre lui valut, une amitié profonde et exemplaire.

La liste est très longue pour que l'on puisse citer les noms de tous ses amis. Il était particulièrement lié, à quelques personnes, d'une grande amitié, qui a été émaillée souvent d'oeuvres élaborées en commun.

Il y eut si Mohammed El-Marzougui «*l'homme chevaleresque et très cultivé*», Si Hamadi Sahli, Si Hédi Laâdidi journaliste au journal Essabah, si Ahmed Jallouli, et j'en oublie... Il serait injuste de ne pas rappeler ici le nom du grand savant Si Hassan Hossni Abdelweheb, le flambeau et maître incontesté.

Fils de l'île à laquelle il était très attaché, Jilani Ben Haj Yahia, qui avait excellé dans l'annotation des livres célèbres, devenait en même temps et aussi le grand biographe des auteurs méconnus. Ainsi, il avait mis en exergue tout autant la personnalité que les activités intellectuelles et politiques de quelques insulaires, dont les noms sont tombés en léthargie.

«Tout homme doué ou talentueux, a du temps à consacrer à la culture et aux choses de l'esprit en général. D'autant que l'homme peut toujours faire oeuvre utile en s'adressant aux autres, en propageant la culture et en partageant le savoir et le bon goût».

Il s'est occupé en premier lieu de la biographie du journaliste combattant Cheikh Soliman El-Jedoui (1871 -1951), suivie de celle du journaliste Béchir El-Fourti, de celle de Tijani Ben Salem, de celle du premier président de l'association des écrivains, Mohamed Badra, qui fit venir en Tunisie le poète Bayrem Ettounsi... Entre temps Si Jilani avait publié également des biographies de Cheikh Thaâlbi, de Mohamed Ben Khoja, d'El Hchaichi et de son grand ami Mohamed El Marzougui... Sa dernière biographie a été consacrée à la vie et au combat du leader Salah Ben Youssef.

Bien que cette étude soit incomplète dans ses détails, cet immense travail nous a révélé une masse de renseignements sur cet homme politique d'une grande envergure, qu'un sort cruel avait arraché à son pays, mais qui n'avait pas réussi pour autant, à arracher de son coeur l'amour qu'il avait pour son pays la Tunisie. Néanmoins, l'exemple et l'élan étaient donnés lorsque les hautes autorités avaient réhabilité les opposants de l'ancien régime. Tous les esprits épris de démocratie ont applaudi cette bonne décision de ramener les cendres d' «Ezzaîm» Ben Youssef en sa terre natale. D'autant que cette heureuse initiative est à la fois une réconciliation pour sa famille et un acte noble qui a permis au défunt de reposer sur le sol de la République parmi les frères, les amis et tous les Combattants-martyrs, dont le sang versé a

Hommage à un Tunisien-Djerbien d'exception:

Le regretté Si Jilani Ben Haj Yahia!

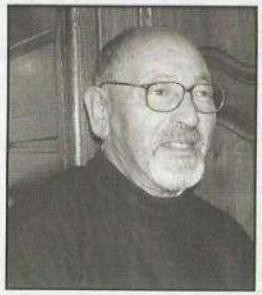

Kamel TMARZIZET

Le frère et ami cheikh Jilani ben Haj Yahia n'est plus. Une douloureuse et courte maladie, qui l'avait contraint à interrompre subitement ses activités intellectuelles et à se faire hospitaliser dans une clinique, a fini par le terrasser. Il est décédé le 21 avril 2010 à Tunis.

La perte de cette grande figure de la Tunisie contemporaine, tout le monde l'a ressentie avec la douleur du respect qu'il ne manquait pas de susciter partout sur son passage. Avec lui disparaît un grand intellectuel qui a énormément contribué au développement de la recherche et des études littéraires en langue arabe.

Truculent, exubérant, effervescent, Si Jilani est qualifié par les critiques d'un homme «*d'une tête bien faite, d'un regard scrutateur et pétillant et d'une allure de fouineur que ponctuent des envolées humoristiques à nulle autre pareille.*»

Parmi les derniers fins esprits à la pertinence savoureuse, ce convivial imprègné dès sa jeunesse de culture et de bon goût, était d'autant plus d'une grande qualité exceptionnelle que l'on ne pouvait, lorsqu'on le rencontrait ne pas «*succomber à la mécanique de son charme*». Auteur de moult ouvrages, dont certains sont destinés à faire rire intelligemment, cet îlien appartenait à une génération qui avait grandi à l'ombre des grands maîtres évoluant dans les salons littéraires...

J'en parlerai plus loin et dans le détail. Je commencerai tout d'abord par le début.

Si jilani est né le 21 juin 1929 à Temlel-Midoun à Djerba, l'île qui avait une très forte tradition de lettrés. Djerba-Midoun était alors un petit village très typique... «*Et j'aurais*, me disait si Jilani, *tant souhaité que mon village natal demeure comme avant.*»

Comme tous les enfants djerbiens, il commença par le Koutteb, avant de rejoindre l'école coranique.

Enfant, il vint avec sa famille à Tunis où il fut inscrit par son père à l'école de la rue El-Kinz à souk El-Balatt où il obtint son certificat d'études primaires. Dans les années 40, il s'inscrit à la grande mosquée Ezzeitouna et à l'école El-khaldounia où ses sept années d'études furent couronnés par le diplôme du *Tashil*. Parallèlement, il poursuivait les cours donnés par le professeur Mahmoud Massaâdi, à l'institut des hautes études de la rue de Rome, dirigé à cette époque par Si Hassan Zmerli. Ses études lui permirent d'être admis à l'école normale.

Après son stage, il fut désigné maître d'application à l'école Kheireddine rue du Tribunal. Sept années après, il fut nommé Inspecteur de l'enseignement primaire...

Doué et talentueux, Si Jilani fut apprécié par Si Mahmoud Massaâdi alors Ministre de l'éducation nationale. De ce fait, il fut appelé au cabinet du ministère «*afin d'assister dans sa tâche ardue Si Hamadi Sahli.*» Homme, dit-il «*très bon, éduqué et très courtois*». Si Jilani eut avec Si Hamadi une longue et solide amitié.

Ensuite, Si jilani entra à la bibliothèque nationale dirigée à cette époque par si Othman Kaâk.

Très vite il fut nommé directeur responsable des Bibliothèques publiques. Quelques années après, il put, grâce à une bourse de l'UNECSO, passer une année en Suisse à l'université de Genève.

De retour en Tunisie, il travailla à l'ALECSO, avant de rejoindre le cabinet du ministère de la culture où il demeura comme conseiller jusqu'à sa pré-retraite.

Cela étant, tout ce parcours professionnel de haut fonctionnaire et cette carrière qui n'étaient guère connus du grand public, n'ont pas entravé ses activités culturelles naissantes.

Etudiant, Si Jilani était déjà habité par le démon de la fondation d'associations.

En 1947, il fonda l'association des étudiants de l'île. En 1949, il devint un membre actif de l'association de Manar EL-Adeb, créée par les étudiants djerbiens. A cet effet, il créa son journal Wahi Echabab!

En 1950, il fonda, avec ses compagnons Si Mohammed El-Marzougui et Si Laâroussi Métoui Nadi El-Qalem, le club de la plume. Et ce fut le début de leurs activités intellectuelles et de la promotion du patrimoine culturel. Quelques années après, il créa avec Si Mohamed Ben Amara, le club culturel d'El-Ouardia, qui fut longtemps présidé par Si laâroussi El-Métoui.

Et aux trois compagnons, judicieusement conseillés et surtout encouragés par Zine El-Abidine Senousi, de commencer à mettre au point tout d'abord, des livres scolaires avec une âme tunisienne, contenant des textes essentiellement tunisiens, et de révéler au public

Un passionné de littérature

Un homme de lettres, féru de la culture et sans cesse à l'affût d'une information concernant la littérature arabe en général et tunisienne en particulier.

Jilani Ben Haj Yahya est d'abord un éducateur qui a formé des générations et a acquis cet instinct de vouloir être utile en ajoutant toujours de l'eau au moulin de la connaissance.

Il a réalisé plusieurs ouvrages où il a pu entre l'utile et l'agréable donner le maximum d'informations sur les écrivains arabes et tunisiens.

Il avait le mot pour rire mais dans sa factice il n'y avait rien de vexatoire ou d'attentatoire à la dignité qu'il a su préserver sa vie durant.

Il était pertinent dans ses critiques littéraires et réussissait toujours à transmettre le message qu'il fallait à travers les oeuvres qu'il a réalisées.

Je l'ai croisé il n'y a pas longtemps. A l'allure d'un gentleman, avec sa canne qui ne lui sert pas à s'appuyer mais plutôt à contrôler ses pas cadencés et ses moustaches à la mode des années 50.

Il était jovial et optimiste comme à l'accoutumée et m'a promis une rencontre pour évoquer le bon vieux temps des cercles littéraires animés par Chedli Bouyehia, Habib Chiboub, laâroussi Metoui, M'hamed Marzouki et toute cette vague d'écrivains des années 60.

Mais il a préféré tirer sa révérence discrètement et un peu hâtivement quand même. Paix à son âme.

Ahmed YOUNES
(Le temps - 28 avril 2010)

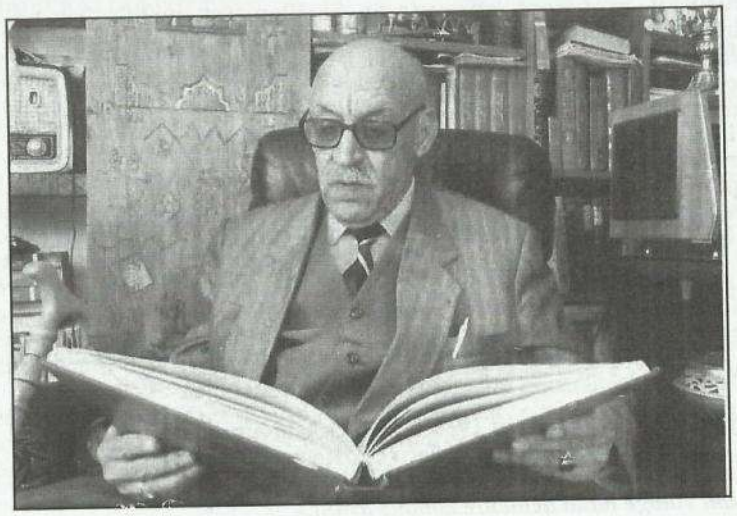

Rencontre des Associations de Sauvegarde (nov. 1990). De g. à d. Dr Fouli, directeur à l'ALECSO, Jilani Ben Haj Yahia, Férid El Cadhi, Le Directeur Général de l'ALECSO et Saïd Barouni .

En bas, lors d'une session des rencontres de Sauvegarde en date du 11/05/2002

هذا الكتاب برعاية دار تونس للنشر

طبع: الشركة التونسية لفنون الرسم

Stag IMPRIMERIE

الهاتف : 316 940 71